

الغيرة

الغيرة

جي دي موياسان

ترجمة: سامي غنيم

تقديم ومراجعة: خالد سليمان

الطبعة: ٢٠٢٣



العربية للاعلام والفنون والدراسات الانسانية والنشر

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكو ر- الهرم – الجيزة - مصر
هاتف: ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

http://www.azhabooks.com

E-mail: info@azhabooks.com

بطاقة فهرسة أثناء النشر

موياسان ، جي دي. - ترجمة: سامي غنيم . تقديم ومراجعة: خالد سليمان - الغيرة

– الجيزة – أزهى، ٢٠٢٣

٢١٥ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٠ – ٥ – ٨٦٤٦٤ – ٩٧٧ - ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع: ٧٠٩٤ / ٢٠٢٣

جي دي موياسان

الغيرة

رواية

ترجمة

سامي غنيم

تقديم ومراجعة

خالد سليمان

تقديم

جي دو موباسان (١٨٥٠– ١٨٩٣) كاتبٌ وروائيٌّ فرنسيٌّ وهو أحدُ آباءِ القصَّة القصيرة الحديثة. من أشهر رواياته: "كرة الشَّحم"، "بيير وجان"، "بيل أمي".. ومن أهمِّ قصصه القصيرة: " العقد"، "الآنسة فيفي"، "في الحقول"، وروايته "بيير وجان"، هي نفسها المنشورة باسم "الغيرة" في ترجمتها إلى العربية، فقد رأى المترجم القدير سامي غنيم أن يمنح ترجمته للرواية عنوانا دالا على موضوعها، وإن كان المؤلف قد اختار لروايته عنوانا يجمع بين اسم بطليها الأخوين "بيير وجان".

وهذه الرواية هي روايته الثالثة، ويعتبرها النقاد أفضل رواياته لما فيها من دراسة نفسية متعمقة ولما أنجزه موباسان فيها من كمال الشكل الروائي.ويلاحظ قارىء أعماله أن معظم شخصيات قصصه فلاحون نورمانديون، وبيروقراطيون باريسيون، وجنود وبحارة. وهو لا يفضل نهاية بعينها لقصصه. ولكنه يختار النهاية التي يفرضها الواقع المرسوم في القصة. ذلك ان هدفه الاول من كتابة القصة هو تقديم صورة واضحة المعالم لما رآه بعينيه في الواقع.

والمرأة في قصص موباسان هي التي تأخذ بزمام المبادرة، لقد كان موباسان مقتنعا أن الأخلاق التقليدية قائمة على اضطهاد المرأة وتمجيد الرجل. وهذا هو اساس الصراع الاجتماعي الذي يسفر عن التحدي الشجاع الذي تقوم به المرأة وهو التحدي الذي أراد موباسان ان يصوره في

أعماله، حيث يصور ظروف المرأة المتزوجة التي أخفقت في زواجها ولم يساعدها زوجها في تحقيق المثل العليا التي طمحت أن تجدها في مؤسسة الزواج. ويصور الزوج بطريقة لا يجد فيها القارىء مجالا للتعاطف معه فالثقة بالزوجة ليست فضيلة إذا كان أساسها غرور الزوج.

السيرة :

في شهر أغسطس من عام ١٨٥٠، ولد الطفل هنري رينيه ألبرت، والذي عرف باسم "جي" في قصر ميرو مسنيل بنورماندي الفرنسية، على مسيرة خمسة أميال من ميناء دييب. كانت الأسرة فقيرة ، رغم أصولها النبيلة، لأن جد الكاتب كان قد أفلس منذ فترة طويلة، فاضطر والده والد جوستاف دي موباسان إلى البحث عن عمل يضمن للأسرة قوت يومها، فعمل في البورصة كوسيط ، ولكن في نفس الوقت في الحياة ظل مخلصًا لذوقه الجمالي، واستمر في القراءة في الأدب والفن وحتى الرسم بألوانه المائية. كان والد موباسان أنيقًا، وكان مشهورا باعتباره مغويا للنساء، لذلك انفصل والديه فور ولادة ابنهما الثاني، فتركت لورا القصر وانتقلت مع الأطفال إلى الفيلا الخاصة بهم في بلدة إتريتات. وهناك كانوا يركضون ويمرحون، ويصطادون بسرور على الساحل، ويتحدثون مع الصيادين والمزارعين المحليين. وهذا المكان هو أول مكان وعته ذاكرته، وأشار إليه في كثير من قصصه، وفي هذه الفترة بدأت العلاقة الزوجية بين والديه في التردي والانهيار بسبب مغامرات الأب النسائية، وقد بدأ الصغير الذكي يلحظ ذلك، ولم يكن الأمر يخلو من تعليقاته السليطة التي ترضي والدته، ومن الأمثلة الطريفة على ذلك أنه بينما كانت الأسرة تقضي الشتاء في

باريس، كتب الصبي إلى والدته يقول: "كنت الأول في الإنشاء، ووعدتني المعلمة بأن تكافئني، ثم أخذتني إلى السيرك ومعنا والدي، ويبدو أنها كانت تكافئه كذلك على شيء لا أعرفه".

وفي سن الثالثة عشرة، تغير كل شيء بشكل كبير عندما أرسل للدراسة في معهد اللاهوت. لم يحب موباسان القواعد الصارمة، وقام بمحاولات للهروب ولعب الكثير من المشاغبين وكان مضطربًا. نتيجة لذلك، طُرد من معهد اللاهوت، فأرسلت الأم ابنها إلى مدرسة روان الثانوية. وهناك أظهر جي اهتمامًا كبيرا بالعلوم والفنون.ووقع في حب الكتب. واتخذ من الكاتب جوستاف فلوبير معلمه الحقيقي، وعندما بلغ جي الثالثة عشرة من عمره، وقع له حادث غَيَّرَ نظرته للحياة، وقد وصفه بقوله:

"كان يومًا عاصفًا لا أنساه، يوم كنت ألعب في أحد المتنزهات فشاهدت والديَّ آتيان من بعيد، وتقدمت نحوهما أسترق الخطى كي أفاجئهما. لكن الفزع سمَّرني في مكاني وأنا أسمع أبي يصيح بوالدتي: إنني في حاجة إلى نقود، وأريدكِ أن توقعي. فأجابته والدتي قائلة في حدة: لن أوقع. فهذه نقود جي وسوف أحتفظ له بها، ولا أحب أن أراك تبعثرها على الخادمات ونسائك الأخريات بنفس الطريقة التي بعثرت بها أموالك. وكان أبي يرتعد بالغضب كقصبة في الهواء، فاستدار وأطبق على عنق والدتي، ثم أخذ يضربها على وجهها، وعبثا حاولت أن تدرأ ضرباته المتلاحقة المحمومة، وكأنه جُنَّ جنونه فصار يضرب ويضرب حتى هوت على الأرض وهي تخفي وجهها بين ذراعيها، وعندئذ لوى ذراعها وعاد يضربها مرة أخرى. وخُيل إليَّ أن نهاية العالم قد حلَّتْ، وأن القوانين والشرائع الخالدة قد تبدلت وتغيرت،

ومنذ ذلك اليوم اختلف كل شيء في عيني، ولمحت الجانب الآخر للأشياء. الجانب السيء، ولم أرَ منذ ذلك الحين للجانب الآخر أثرًا".

ويبدو أن هذا الحادث الذي حُفر في ذهن موباسان قد انعكس على رؤاه القصصية.. فقصصه واقعية وكثيرًا ما تعكس موقفه التهكمي اللاذع المتشائم تجاه الناس، وتعاطفه الجلي مع الفقراء والمنبوذين في المجتمع.

تلميذ فلوبير

جاءت اللحظة الفارقة في حياة موباسان، عندما تعرف على فلوبير، الكاتب الشهير الذي كان يُعرف بأنه أشد الرجال عزلة في أورُبَّا كلها، ولا نكون مبالغين إذا قلنا إن الأقدار كانت تخطط لجمعهما معًا. فقد كان فلوبير يبحث عن حواري مخلص، وكان جي يبحث هو الآخر عن معلمٍ محنك يقود خطاه في عالم الأدب المعقد، حتى أنه ظل سبع سنوات يذهب إليه أيام الأحد حاملاً قصائده وقصصه ومسرحياته.

يقول موباسان عن فترة تلمذته هذه، في مقدمته لرواية "بيير وجان" الصادرة عام ١٨٨٨م: "كان فلوبير يبدي اهتمامًا بي، فوجدت الجرأة لأن أعرض عليه بعض المقالات، وبعد أن قرأها قال لي: لست أدري إن كانت لديك الموهبة أم لا، فما قدمته لي يعكس بعض ملامح الذكاء، ولكن لا تنسَ هذا يا فتى.. الموهبة ليست سوى الصبر الطويل، فلتواظب"، ويستطرد: "وواظبت، وغالبًا ما كنت أزوره مدركا أنني وقفت في نفسه موقفا حسنا؛ لأنه أخذ يدعوني بحواريه، وطوال سبع سنوات كنت أكتب شعرا وقصصا وروايات قصيرة، بل كتبت أيضا مسرحية فظيعة، ولم يُكتب لأي

منها الحياة. لقد قرأها الأستاذ جميعا، ثم أبدى ملاحظاته النقدية، وكان يقول: إذا كانت لديك أصالة فعليك أن تُظهرها، وإذا لم تكن لديك فينبغي أن تخلقها، وما الموهبة سوى صبر طويل. إنها تتضمن النظر إلى كل شيء يسعى المرء إلى وصفه بدقة كافية وبوعي كافٍ، ففي كل شيء توجد عناصر لم تكتشف بعد؛ لأننا اعتدنا أن نستعمل أعيننا فقط في نطاق ذاكرة الناس الذين سبقونا في النظر إلى ذلك الشيء. إن أبسط الأشياء تنطوي على نقطة ما مجهولة فيها، فلنبحث عن تلك النقطة، فلأجل أن نصف نارا تشتعل أو شجرة في حقل، ينبغي لنا أن نقف أمام تلك النار أو تلك الشجرة، إلى أن تكف عن أن تبدو كأي نار أو شجرة أخرى.

بعد ذلك تعرَّف موباسان إلى إميل زولا، الذي كتب عنه يقول: "عرفت موباسان في صالون فلوبير الأدبي حوالي سنة ١٨٧٤ بعد تخرجه مباشرة في الكلية، وكان يتردد على أستاذه كل أسبوع مرة ليقرأ له ما كتب فيصحح له فلوبير عباراته ويسدد خطاه، وكان جي في حضرتنا قليل الكلام، يصغي بذكاء ويقبس لمستقبل حياته، وسرعان ما غدونا أصدقاء بدورنا لهذا الشاب الألمعي، وعجبنا لقصصه بقدر ما أعجبتنا، وكان شابا متوسط القامة، قوي البنيان، مفتول الذراعين، وكان معتدا بنفسه، وراوية لأعجب القصص عن النساء، مما كان يجعل فلوبير يضج بالضحك من نوادره وحكاياته حتى يؤلمه جنباه".

وفي ٢٥ من نوفمبر سنة ١٨٧٩ كتب فلوبير إلى مدام جولييت آدم رئيسة تحرير مجلة لانوفيل ريفي يقول: " اسمحي لي أن أرسل إليكِ بنفس البريد مقطوعة من الشعر أعتبرها جديرة بمجلتك، وأعتقد أن كاتبها جي دي

موباسان له مستقبل كبير في عالم الأدب، وأنا أحبه غاية الحب لأنه أيضا ابن أخت صديقي الراحل العزيز ألفريد لو بواتيفان ويشبهه كل الشبه، وأكون شاكرا لو نشرتِ له هذه القصيدة الصغيرة، وقد ظهرت لكاتبها مسرحية في هذا الشتاء اسمها (تاريخ الأزمنة القديمة) ولقيت نجاحا ملحوظا يبشر بمستقبل كبير".

وسرعان ما كتب موباسان قصته "كرة الشحم".. وعندما قرأها فلوبير أرسل إلى جي يهنئه عليها، ويعتبرها جوهرة من الإنتاج الخالد، وفي ٢٥ من أبريل ١٨٨٠ ظهر ديوانه الشعري الوحيد، وقد أهداه إلى أستاذه فلوبير، لكنه لم يهنأ به؛ إذ داهمته الأحزان بعد أحد عشر يوما من صدور الديوان؛ فقد مات جوستاف فلوبير بالسكتة القلبية. لكن موباسان لم يستسلم لأحزانه، وانغمس أكثر في عالمه الإبداعي، وبعد ثلاث سنوات، وتحديدا في ٢٧ من فبراير ١٨٨٣ بدأت صحيفة جيل بلان تنشر تباعا قصته الطويلة "حياة امرأة"، أما سنة ١٨٨٤ فتمتاز بزاد وفير من مؤلفات جي القصصية، ففيها كتب حبيب القلب، تلك القصة التي أثارت ضجة الصحافة في باريس؛ إذ اعتبرتها تشهيرا بالصحفيين، الذين شبههم بالعاهرات، ويبتزون المال بالتهديد، وينسبون لأنفسهم أحيانا ما يكتبه لهم الغير، ويفاخرون به سائر الكتاب والقراء.

قدر محتوم

أصدر موباسان في حياته سبع روايات وتسعة عشر مجموعة قصصية ضمت ثلاثمائة قصة قصيرة، وعددا من حكايات السفر ومن اليوميات، فضلا عن ديوان شعر، ويرى النقاد أن قصص وروايات موباسان وثيقة

بالحياة الاجتماعية اليومية، وبحياة الكاتب نفسه, وكلما تغلغل في الأوساط الباريسية المخملية، ازداد تشاؤمه من غباء الناس وآثامهم ونفاقهم، ومن رجال الدين، ومع ذلك لم يفقد الثقة بالإنسان، عاش قصص حب مثيرة وكتب عنها، ولكنه اصيب بخيبة أمل وكآبة، وبات غاضباً بسبب سيادة الباطل والقسوة في المجتمع. كان الشر الكامن في نفوس البشر أكثر مما يتحمله هذا الإنسان بحساسيته الروحية المفرطة، مما أدى به الى الجنون في نهاية المطاف، وتوفي في احدى المصحات العقلية عام ١٨٩٣عن عمر يناهز الثالثة والاربعين عاما.

وكان في أسرته جنون وراثي؛ فبعد أن أصيب أخوه بفقدان العقل ثم موته، علم موباسان أنه محكوم عليه بتلك النهاية، وكانت حالته معقدة، وأغلب الظن إنها لو فحصت في البداية لكان في الإمكان إنقاذه. ولن يعادل ما وضع من السخريات في قصصه تلك السخرية التي أصابته في السنين القلائل الأخيرة من سني حياته، حينما انحطت قواه العقلية بسرعة.

ولقد بدأت نهاية موباسان المأسوية في الثامن من ديسمبر ١٨٩١ عندما دخل في صراع مرير مع المرض القاسي، ويمكن أن ندرك إلى أي مدى كان موباسان يعاني، من الرسالة التي كتبها إلى أحد أطبائه يقول فيها: "... إن جسمي كله – لحمي وجلدي – قد نُقع في ملح، فلم يعد لي لعاب لأن الملح جففه تماما. أظن أن هذه هي بداية النهاية. إن رأسي يؤلمني ألما مبرحا يجعلني أضغطه بين يدي فأشعر بأنه رأس ميت".. وفي رسالة أخرى لصديقه كازاليس يقول: "... لقد ضعت تماما. إنني أموت! لقد غُسلت مسالك أنفي بمياه مالحة نفذت إلى مخي ونخرت فيه، فأخذ يسيل كل ليلة خلال أنفي

وفمي، إنني مجنون، ورأسي يهذي.. فوداعا يا صديقي لأنك لن تراني مرة أخرى".

كان واضحا تماما أن إرهاصات موت مبدع مدهش قد بدأت بالفعل، وليس غريبا أن يكون أول مَنْ يشعر بهذا هو المبدع العبقري نفسه كما يتضح من رسائله في هذه الفترة، أما الآخرون فقد تأكد هذا عندهم بعد أن نُقل إلى باريس في قميص المجانين، ولم تقوَ أمه على زيارته خشية أن تنهار عندما تراه في هذه الحال، وكل يوم يمر، كانت حالته تزداد سوءً، إلى أن وافته المنية يوم السادس من يوليو ١٨٩٣م، ليرحل عن الدنيا كاتب فذ كان قد شغل مكانة كبيرة في قلوب الفرنسيين، وظلت الصحف ترثيه وتشيد بمؤلفاته.

خالد سليمان

الفصل الأول



صاح رولاند العجوز فجأة قائلاً:

- إنها لا تهتز..

ولم يكن قد نطق بأي كلمة منذ ربع ساعة خلت، بل جلس صامتاً دون حراك، وعينه مثبتة على اسطح الماء شاخصاً إلى حبل صنارة الصيد المتدلي في الماء.

وأيقظت صيحة مسيو رولاند زوجته مدام رولاند التي كانت جالسة في مؤخرة القارب تغالب النعاس الذي أخذ يهاجمها بعنف بينما كانت تجلس بجوارها مدام روزيمللي وكان الزوجان قد دعياها لمصاحبتهما في رحلة من رحلات صيد السمك التي يهواها مسيو رولاند أكثر من أي شيء في الحياة.

وقالت الزوجة لتطرد النعاس ولتثبت لنفسها وللآخرين أنها ما زالت يقظة:

- حسناً حسناً يا رولاند

ورد مسيو رولاند قائلاً:

- ما بال السمك لا يريد أن يقضم طعن السنارة! إن الحظ لم يحالفني بصيد سمكة واحدة منذ أن تناولنا غداءنا.. يجب ألا يخرج المرء للصيد إلا في صحبة الرجال، فالنساء يشغلون المرء عن متابعة الصيد!

وضج والداه بيير وجان بالضحك في نفس الوقت، وكان كل منهما جالساً على حافة القارب، وخيط سنارة يتدلى من بين أصابعه إلى الماء، وقال جان معقباً:

– إن ملاحظتك غير لائقة يا والدي خاصة أمام مدام روزيمللي وكأنما أحرج الوالد قول الابن فنظر إلى مدام روزيمللي في شبه اعتذار قائلاً:

– اغفري لي ملاحظتي يا مدام روزيمللي، فأنا هكذا دائماً.. أدعو النساء لمصاحبتي في رحلات الصيد.. لأني أحب صحبتهن.. ولكن أن تتدلى السنارة في قاع البحر حتى أنسى كل شيء ما عدا السمك.. ويصبح اهتمامي كله مركزاً في طرف السنارة. وتنبهت مدام رولاند تماماً واستطاعت أن تطرد النوم الذي كان يغالبها، ونظرت إلى الأفق الممتد أمامها، وقالت:

– ومع ذلك فإن حصيلة صيدك اليوم مرضية يا رولاند.

وهز مسيو رولاند رأسه في إنكار، وإن كان هذا لم يمنع بسمة سعيدة من أن ترتسم على شفتيه وهو ينظر إلى السلة الموضوعة بين الرجال الثلاثة – هو وولديه – والتي وضعوا فيها ما جاد به البحر عليهم، حيث رقد السمك يقاوم الموت المقترب منه في سرعة بعد أن انتزع من بيئته الطبيعية، وأخذت الخياشيم تفتح وتغلق كأنما تطلب النجدة لتدفع عنها المصير القريب المحتوم.

ورفع مسيو رولاند السلة ووضعها بين ركبتيه، وأمالها ناحية اليسار قليلاً حتى تنزاح السمكات العليا ليتمكن من رؤية ما بقاع السلة، وانبعثت من السمك تلك الرائحة التي تحمل من البحر بعض ملوحة مائه، ومن الهواء

نقاوته، وأمسك إحدى السمكات وقربها من أنفه، واستنشق نفساً عميقاً زفره في تلذذ وهو يقول:

– ما أطيب رائحة السمك الطازج

ثم التفت إلى ولده الأكبر بيير وسأله:

–كم سمكة اصطدتها يا دكتور؟

وكان الابن الأكبر بيير في حوالي الثلاثين من عمره ذا سوالف طويلة، وإن حرص على حلق ذقنه وشاربه بعناية، وأجاب على تساؤل والده قائلاً:

– ليس كثيراً.. ثلاثة أو أربعة على ما أظن.

والتفت الوالد إلى ابنه الثاني وسأله:

– وماذا عندك يا جان.. كم سمكة اصطدتها.

وكان جان شاباً فتياً أكثر نحولة من أخيه الأكبر ورد على والده قائلاً:

– تماماً مثل بيير يا والدي.. أربع سمكات أو خمس.

ونظر الرجل إلى ولديه بعين قريرة، ثم ابتسم، ثم ربط طرف سنارته في حلقة المجداف ورفع يده ملوحاً قائلاً:

– لن أحاول اصطياد السمك في فترات بعد الظهر أبداً.. أحسن وقت للصيد هو ما قبل الساعة العاشرة.. إذ أن السمك. بعد هذا لا يأنس لطعم السنارة، ويفضل السباحة تحت ضوء الشمس.

واتبع مسيو رولاند قوله هذا بنظرة إلى البحر، أجالها في كل الاتجاهات وشعر بسعادة كما لو كان البحر يخصه وحده.

كان مسيو رولاند يعمل تاجراً للمجوهرات في باريس ولكن حبه للبحر والصيد، دفعه إلى غلق محله عندما جمع ثروة أحس أنها يمكن أن تكفل له حياة هانئة حتى ولو كانت متواضعة. ولهذا فقد انتقل للحياة في لوهافر، واشترى قارباً وأصبح بحاراً هاوياً. وقد ظل والداه في باريس ليكملا تعليمهما، وكانا بين الفينة والفينة كلما سنحت لهما عطلة، يذهبان إلى لوهافر ليشاركا والدهما في مزاولة هوايته المحببة وهي البحر والصيد.

وعندما أتم بيير – الذي يكبر أخاه بحوالي خمس سنوات – دراسته الثانوية، وجد نفسه حائراً بين أنواع التعليم العالي التي كان مشدوداً إليها وإن لم يحسن اختيار أي طريق.. فقد كان يبدأ دراسة معينة، ثم لا يلبث أن يهجرها بعد أن يسير قليلاً في دراستها مدفوعاً برغبة أقوى إلى نوع آخر من التعليم.. وكانت آخر رغبة لديه هي دراسته الطب، ولحسن الحظ أنه تحمس كثيراً لتلك الدراسة وتمكن من إنهائها والحصول على درجتها العلمية، وساعده في ذلك حماسه وذكاؤه ورأسه المليء بالآراء والفلسفة وأحلام العالم المثالي السعيد.

أما جان الذي كان أشقر البشرة هادئاً لطيفاً وهي صفات كان بيير يتمتع بعكسها. لأنه كان أسمر البشرة، دائماً قلقاً يعوزه الاستقرار، سريع الغضب والتوتر – قد انتهى هو الآخر من دراسته القانونية وأصبح محامياً في نفس الوقت الذي أصبح أخوه بيير طبيباً.

وكان الشابان يقضيان عطلة طويلة مع والديهما في لوهافر، وكان كل منهما قد عزم على مزاولة مهنته في نفس المدينة – لوهافر – إذا تأكد لديهما أن قدراً من النجاح قد يحالفهما.

ولكن إحساساً غامضاً بالغيرة، ذلك الإحساس الخفي الذي ينشأ بين الأخوة ويظل يعتمل في النفوس حتى يبلغوا مرحلة كافية من النضج ساد بينهما. كان بيير وجان شبه غريمين لا يكفان عن التنافس فيما بينهما وإن لم تزد حدة هذه الغيرة إلى حد إحداث أضرار خطيرة — لأيهما، ولم يكن هناك أدنى شك في أنهما يحبان أحدهما الآخر، ولكن هذا لم يمنع كونهما دائماً على حذر من بعضهما، يستشفان التنافس فيما بينهما ويدخلان أغوارها.

وكان بيير قد بلغ الخامسة من عمره عندما ولد أخواه جان، ولقد أحس منذ اللحظة الأولى بالغيرة من هذا القادم الجديد الذي كان يراه دائماً على ذراعي أبيه أو أمه، والذي استحوذ على اهتمامهما وإعجابهما الذي كان لا ينافسه فيه أحد من قبل، ولقد اتسم جان منذ طفولته برقة المعشر والسماحة وحسن الخلق، ولم يكن ينغص حياة بيير أي شيء أكثر من سماعه كلمات المديح وهي تنهال على أخيه جان من كل الناس.. وكان دائماً يحاول أن يشوه بينه وبين نفسه الصفات التي كان يعجب بها الناس في أخيه، فكان يعتبر رقة معشره نوعاً من النعومة التي لا تليق بالرجال، وسماحته على أنها عبط، وحسن خلقه على أنه جبن من مواجهة المواقف.

وكان والداه غير راضيين عن كل أفكاره، بل إنهما لم يكونا راضيين عن اندفاعه في حماسه للدراسة وتقلبه فيها وتنقله من نوع إلى آخر، وكان كل أملهما هو أن يريا ولديهما في مراكز تكفل لهما عيشاً هانئاً وإن لم يكن من الضروري في اعتبار الوالدين أن تكون هذه المراكز مرموقة جداً أو خطيرة.

ومنذ أن بلغ بيير مبلغ الرجال، لم يعد يسمع صوت التأنيب المنبعث من الوالد أو الوالدة وهما يقولان له: "انظر ما فعل جان وافعل مثله، ولكن

الطريقة تغيرت وإن ظل الهدف واحداً فكثيراً ما خاطبه أحدهما قائلاً "لقد فعل جان كذا" أو "إن جان لم يفعل كذا" ويتركان له الإحساس برغبتهما في أن يتبع خطاه وينهج نهجه.

وكانت والدتهما مداو رولاند العجوز امرأة حكيمة، تحمل سمات سيدات الطبقة الوسطى وكانت تبذل جهداً كبيراً في تلطيف حدة اتوتر وإخماد المشاحنات التي كثيراً ما كانت تنشأ بين ولديها بيير وجان نتيجة لاحتكاكات المعيشة كل يوم.

وكان عقلها مشغولاً في هذه اللحظة بأمر قد يبدو غير ذي بال ولكنها كانت كامرأة مجربة تخشى ما قد ينجم عنه من مضاعفات.

فقد حدث خلال هذا الشتاء، وبينما ابناها في باريس مشغولين بالتحضير لنيل شهادتهما النهائية في الجامعة أن تعرفت على جارة شابة حسناء تدعى مدام روزيمللي وهي أرملة كان زوجها قبطاناً لإحدى السفن عابرة المحيطات ومات منذ خمس سنوات وكانت هذه الأرملة الشابة. ذات الثلاثة والعشرين عاماً.. تملك حساسية أنثوية فياضة، وخبرة بالحياة كما لو كانت قد خبرتها مئات السنين، قد اعتادت منذ أن توطدت معرفتها بمدام رولاند أن تزورها بين الحين والآخر في أمسيات الشتاء.. تتحادثان قليلاً مع قدح من الشاي أو قطعة من قماش التطريز.

وكان مسيو رولاند العجوز مدفوعاً بهوايته كبحار وحبه لكل ما يمت للبحر بصلة – وكثيراً ما يطلب من الجارة العزيزة أن تقص عليه بعض ذكرياتها عن زوجها القبطان الراحل، فكانت تحدثه عنه، عن أخلاقه وطابعه

وعن الرحلات العديدة التي قام بها والموانئ التي زارها، وكانت تتحدث في أسلوب ولهجة تجمعان بين احترام الميت والوفاء له، وحب الحياة والتعلق بها!

وعندما عاد الابنان إلى لوهافر بعد انتهاء دراستهما وجدا مدام روزيمللي تتردد كثيراً على المنزل حتى ألفته وأصبحت كأنها فرد في الأسرة، ووجدا فيها مجالاً للتنافس التقويدي الذي كان يقوم بينهما كلما جد ما يدفع إليه، فأخذ كل منهما يتودد إليها، رغبة في الاستحواذ على إعجابها أو صداقتها أكثر منها رغبة حقيقية في التقرب إليها.

وكانت الأم – بما جبلت عليه من نظرة واقعية حكيمة للأمور – تتمنى من كل قلبها أن تكون صديقتها الأرملة من نصيب واحد من أبنائها، لأنها – أي الأرملة – كانت على شيء من الثراء.. وإن كانت تتمنى في نفس الوقت ألا يستاء الابن الآخر من فوز أخيه بها.

وكانت مدام روزيمللي شقراء، ذات عينين زرقاوين وشعر هفهاف تطير خصائله مع أقل نسمة من الهواء، وكانت لطيفة بها رقة الأنثى الشابة وحكمة المرأة العجوز، طيبة في غير خبث، تحسن مواجهة الحياة.

وكما يبدو، فقد مالت كفة جان عند مدام روزيمللي، وأصبح من الجلي أنها تفضله عن أخيه بيير، لما كان بين طبيعتها وطبيعته من تشابه، غير أنها لم تظهر هذا التفصيل صراحة، اكتفاء بنظرة أو طلب رأي أو مشورة.

وكانوا إذا ما ناقشوا رأياً، فإن وجهة نظر جان كثيراً ما كانت تأييداً لوجهة نظرها، عى عكس وجهة نظر بيير التي كانت تقف في الجانب المعارض لها على طول الخط وكانت إذا ما تعرضت لمناقشة آراء الدكتور بيير

أو معتقداته الفلسفية أو السياسية أو رأيه في القيم الأخلاقية، فإنها تشير إليها "بالآراء الحمقاء" وكان رده عليها في تلك الحالات لا يتعدى نظرة باردة تحمل معاني اللامبالاة بما تقول.

وكان من عادة مسيو رولاند العجوز أن يخرج في رحلات الصيد دون أن يدعو حتى زوجته، ولم يكن قد سبق أن دعا مدام روزيمللي لمصاحبته في إحدى رحلات صيده غير هذه المرة. ذلك أنه كان يفضل دائماً أن يخرج للصيد قبل أن ينبلج الصباح، ومعه كابتن "بواسير" وهو بحار متقاعد جاب معظم البحار وخبر أسرار البحر، وكان رولاند قد تعرف عليه في الميناء واصبح صديقه المخلص ورفيقه في رحلات الصيد، كما كان يخرج معهما بحار عجوز اسمه بابا جيرس ويطلقون عليه "جان بارت" أحياناً، وهو الذي كان يعتني بقارب رولاند.

وفي ذات مساء، في الأسبوع الماضي وبينما كانت مدام روزيمللي تتناول العشاء على مائدة آل رولاند إذ قالت:

– إن الصيد لمتعة عظيمة. أليس كذلك؟

وكانت فرصة ذهبية لرولاند العجوز ليشرح للضيفة الشابة كيف أنه مولع بالحر مولع بالصيد خبير به، فانطلق يلقي محاضرة طويلة كقسيس في صلاة يوم الأحد ختمها بقوله:

– أتودين أن تخرجي معنا في إحدى رحلات الصيد يا مدام روزيمللي؟

وأجابت مدام روزيمللي على الفور:

– بالتأكيد.. كم يسعدني ذلك.

وبسرعة قال مسيو رولاند:

– ما رأيك في يوم الثلاثاء القادم؟

وردت مدام روزيمللي قائلة:

– يوم مناسب.

وبعد برهة عاود مسيو رولاند تساؤله قائلاً:

– هل أنت من النساء اللائي يمكنهن الاستيقاظ وبدء الرحلة في الخامسة صباحاً مثلاُ؟

وشهقت في دهشة وقالت:

– في الخامسة صباحاً.. يا له من موعد! طبعاً لا أستطيع يا مسيو رولاند.

وأحس رولاند بخيبة أمل، وخشى أن تنهار الدعوة من أساسها.. ولكنه تساؤل كمن لا يرغب في قفل الباب أمام محدثته:

– ما هو المناسب لك إذن؟

وردت مدام روزيمللي في دلال قائلة:

– ربما في العاشرة.

– وقبل ذلك؟

– مستحيل أن العاشرة تعتبر ساعة مبكرة بالنسبة لي!

وتردد الصياد العجوز.. أن هذا الموعد غير مناسب مطلقاً لصيد

السمك، فمياه البحر عندما يسري فيها دفء تصبح غير صالحة للصيد حيث يحلو للسمك أن يسبح تحت أشعة الشمس متناسياً خيوط السنانير المدلاة للإيقاع به.. وكاد رولاند أن يرفض لولا أن ولديه كانا راغبين حقاً في إتمام هذه الرحلة فعملوا على تذليل كافة العقبات وتدبير كل ما يلزم الرحلة حتى أصبحت أمراً واقعاً.

وفي يوم الثلاثاء، تحركت "اللؤلؤة" وهو اسم القارب الخاص بمسيو رولاند من مرساها في ميناء لوهافر، وقضوا وقتاً طيباً في الصيد، وإن كانت حصيلة غير مشبعة في نظر مسيو رولاند الذي تحقق من أن الأرملة الجميلة لا تهتم بالصيد أو بالسمك مقدار خردلة، وكان كل اهتمامها هو النزهة في عرض البحر مما أثار حنقه وأنفذ صبره ولعن اليوم الذي وافق فيه على الخروج للصيد في هذه المظاهرة الكبيرة!

نظر مسيو رولاند إلى السماء وراقب الشمس وهي تنحني ناحية المغيب ورغب في إنهاء هذه الرحلة التي لم يجن من ورائها صيداً ثميناً، فالتفت إلى أبنائه قائلاً:

– ألا تظنون أن الوقت قد حان للعودة يا أولاد؟

وطوى كل منهم سنارته بينما وقف مسيو رولاند على قدميه ونظر إلى الأفق يتفحصه كما فعل ربان الباخرة الأريب وقال:

– لا توجد رياح كافية لدفع شراع القارب، ولذا فيجب علينا أن نستعمل المجاديف.

وفجأة أشار بإصبعه ناحية اليسار وقال في لهفة فرحة:

- انظروا.. إن السفينة "سوثهامبتون" تبدو هناك على مرمى البصر.

وكانت صفحة الماء الهادئة تمتد على طول البصر كأنها بساط أزرق ينطبق عليها عند آخر ما تستطيع العين أن تصل إليه، حيث تتلاحم مع الأفق المنطبق عليها. وهناك في أقصى الأفق، وفي اتجاه ما أشار إليه مسيو رولاند، بدت السفينة كما لو كانت قارباً صغيراً.

أما في الجنوب فقد كانت هناك أعمدة كثيرة من الدخان المنبعث من مداخن السفن المتجهة إلى ميناء لوهافر الذي بدا بأبنيته البيضاء وفناراته المرتفعة كقرن متحفز في رأس حيوان.

وعاد مسيو رولاند يسأل:

- أليس من المفروض أن تصل السفينة نورماندي اليوم؟

وتطوع جان للرد قائلاً:

- نعم يا والدي.

وأردف الأب يقول:

- أعطني منظاري المكبر.. أظن أنها هي التي هناك على مرمى البصر وليست سوثهامبنتون.

وتناول رولاند المنظار وجذب عموده ليطيل أمد إبصاره ونظر فيه بكلتا عينيه ثم ما لبث أن قال:

- آه.. نعم! إنها هي فعلاً.. إني أعرفها بمدخنتها المزدوجة. هل تودين النظر إليها خلال المنظار المكبر يا مدام روزيمللي؟

وتناولت منه المنظار وثبتته على عينيها، ولكنها لم تستطع أن ترى شيئاً.. اللهم إلا خيوطاً تشبه خيوط قوس قزح، وهي تمتد عبر الأفق.. وناولت رولاند المنظار ثانية وهي تقول:

– لا أستطيع أن أرى شيئاً خلال هذه المناظير.. شد ما كان زوجي يغضب عندما يلفت نظري إلى شيء يلتقطه بمنظاره ولا أستطيع أن أتبينه. كان يقف بالساعات خلف النافذة وفي يده منظاره يشاهد السفن القادمة أو ....

وتضايق رولاند وإن حاول أن يخفي ضيقه وقال لها:

– لابد أن هناك خطأ ما في عينيك.. إن منظاري من نوع ممتاز لا يخطئ في تكبير الأهداف أبداً!

ونظر إلى زوجته التي كانت جالسة تتثاءب وقال لها:

– هل ترغبين في أن تلقي نظرة يا عزيزتي؟

ولكنها أجابت قائلة:

– لا شكراً. فأنا مثل مدام روزيمللي، عيناي لم تتعودا على المناظير المكبرة.

وكان يبدو على مدام رولاند التي بلغت الثامنة والخمسين وإن دل مظهرها على سن أصغر – إنها تستمتع بنزهة البحر وقت الأصيل وقبيل الغروب أكثر من الصيد ورية السفن الكبيرة، كانت هادئة، تبدو على وجهها تعابير توحي بالسعادة والرقة، وتسللت بضع شعيرات بنية إلى رأسها،

مما كان يفضح سنها، وكما وصفها ابنها بيير ذات مرة. بقوله: إنها تعرف قيمة المال غير أنها لم تحرم نفسها من مباهج الحياة.. حتى ولو بالحلم بها. كانت تحب القراءة، قراءة القصص والأشعار، ولم تكن مدفوعة بحب حقيقي للأدب بقدر ما كان يهمها الأثر الخيالي الذي تتركه القصة أو قصيدة الشعر فيها، فقد كان بيت الشعر حتى وإن كان رديئاً كفيلاً بأن يحملها على جناحي الخيال لتحلق عليه، وتعيش في أحداثه بعيداً عن صخب الواقع ومرارته أحياناً!

ومنذ أن هجرت باريس وأتت مع زوجها ليستقرا في لوهافر بدأ وزنها في الزيادة الملحوظة وفقدت كثيراً من رشاقة القد التي كانت تتميز بها إبان شبابها، وكان زوجها مسيو رولاند يعاملها بخشونة أحياناً على الرغم من رقتها ولم تكن خشونته مقصودة بل كانت عادة عنده، ذلك أنه لم يكن يقدر أن يلقي أمراً إلى أحد إلا ويتبعه بإيمان مغلظة مهدداً من تبعة عدم تنفيذ ما يريد، بالرغم من أنه كان على العكس من الغرباء فكان يعاملهم بكل لطف ورقة – أما في المنزل فهو دائماً الرجل العابس المتجهم، الذي يخرج الكلام من فمه كلسعات السياط لو رأى ما لا يعجبه، وإن كان في الواقع بينه وبين نفسه يحس بعدم الرضا عن هذا السلوك، ولم يكن يستطيع تغييره، لأن العادة إذا تأصلت صعب اقتلاعها.

وكانت الزوجة تخشى مناقشة زوجها في كثير من الأمور، بل وتسلم برأيه لو جازفت ودخلت معه في نقاش، لأنه كان دائماً يصر على الفوز لرأيه بأغلبية الأصوات.. وعلى الرغم من حبها لرحلات الصيد إلا أنها لم تحظ منه بدعوة لمصاحبته في إحداها منذ سنين ولهذا فقد كانت متحمسة بل وسعيدة

عندما دعا زوجها صديقتها مدام روزيمللي، لأنها ضمنت على الأقل نزهة بحرية لم تتيسر لها منذ سنين.

وعندما وطئت رجلاها سطح القارب.. وجلست على أحد مقاعده الخشبية، وتركت نفسها في استرخاء شديد تهتز مع اهتزازات القارب دون أن تبذل أي جهد في السيطرة على نفسها.. شعرت براحة ما بعدها راحة.. ولم تفكر في شيء، لا مشاكل ولا هموم في هذه السويعات القليلة.. بل تركت نفسها لمتعة البحر كأنها سابحة فوق بساط من الحرير الناعم الأملس يحركه الموج كيف يشاء.

وعندما عن لمسيو رولاند أن يعود بالقارب إلى الشاطئ مؤذناً بانتهاء هذه الرحلة الخائبة في نظره الممتعة في نظرهم، ابتسمت الأم بعين راضية إلى ولديها وهما يمسكان كل بمجدافه رافعاً إياه إلى أعلى، منتظرين إشارة البدء من السيد – رولاند الذي كان يجد متعة في أن تسير الأمور على قاربه حسب قواعد الملاحة الصحيحة كما لو كان رباناً لسفينة ضخمة، وليس لقارب صغير ذي أشرعة.

وألقى الوالد أوامره ببدء التجديف وهبط المجدافان إلى الماء في حركة متسعة معلنين بدء معركة تقليدية بين الشقيقين لإظهار قوتهما البدنية، وداخل كل منهما شعور بالرغبة في التفوق على الآخر في احتمال الجهد.

وعندما كان يخرجان بمفردهما للصيد مع مسيو رولاند لم يكن يهمهما كثيراً أن يتنافسا في التجديف، بل كانا ينطاعان لتنفيذ طلبات والدهما، وتعليماته فقط "بسرعة جان" أو جدف بقوة أكثر يا بيير أو "إلى اليمين

قليلاً يا جان" غير أن هذه المرة وفي وجود مدام روزيمللي الحسناء، فالأمر يختلف، وكلاهما يود أن يبرز عضلاته.

وبينما كان ذراع بيير رفيعة، ومعروقة، ومغطاة بطبقة كثيفة من الشعر، كانت ذراع جان سمينة مفتولة تبرز منها عضلة كبيرة عند زنديه.

وانطلق القارب في اتجاه الشاطئ وبعد فترة شعر بيير بتعب مضن، وتفجر العرق من جبينه بدرجة ملحوظة، بينما كان جان في أوج نشاطه ولم يبد عليه أي أثر للتعب. ونظر بيير إلى جان وود لو قذف بالمجداف بعيداً وليذهب القارب ومن فيه إلى الجحيم، فقد بلغ به التعب أقصى درجة، وكان قلبه ينتفض بشدة مع كل ضربة مجداف كأن لوح المجداف يضرب سطح القلب وليس سطح الماء.. غير أن غيرته من أخيه، وخشيته أن تعتقد مدام روزيمللي أن جان أكثر منه فتوة وقوة جعلته يستميت في التجديف.

ولحظ أخوه تعبه وسأله:

– يمكنك أن تستريح يا بيير. اترك المجداف الثاني.. فأنا أستطيع أن أجدف بكلا المجدافين.

ولكن بيير رفض بشدة، فالمسألة أصبحت مسألة كرامة، وقال في عناد:

– شكراً.. ولكني لم أتعب بعد..

ونظرت الأم في صمت إلى بيير. وأدركت مدى تعبه وأشفقت عليه، وإن لم تستطع التعليق لعلمها بمدى عناد ابنها الأكبر.

وصل القارب إلى الميناء وسلط طريقه بين السفن الكبيرة الراسية التي

كانت أبراجها ترتفع في السماء كأشجار غابة يانعة، حتى وصل إلى مرساه. وكان "بابا جريس" البحار العجوز في انتظارهم وساعد على ربط القارب، ثم ساعد على إنزال السيدات بينما قفز الرجال الثلاثة إلى الشاطئ بسهولة، واتخذ الجميع طريقهم إلى المدينة. تأبطت مدام رولاند ذراع صديقتها الشابة وسارا في المقدمة بينما تبعتهما الرجال الثلاثة. وعندما عرجوا إلى شارع باريس وهو الشارع الرئيسي في لوهافر كانوا يتوقفون من حين إلى آخر أمام نافذة أحد المحلات التجارية ليشاهدوا قبعة جميلة، أو رداء ملفتاً للنظر. ثم تخرج من أفواههم تعليقات شتى على ما يرون، ثم يستأنفون المسير. وعندما اقتربوا من المنزل، وأوشكت مدام روزيمللي أن تعرج إلى الشارع الموصل إلى منزلها. أمسكت مدام رولاند بيدها في ود وقالت لها:

– ما رأيك ما مدام روزيمللي في أن تتناولي معنا العشاء في منزلنا ليكون ذلك ختاماً ليوم جميل قضيناه سوياً؟ لا شك في إنك لن ترفضي الدعوة.

وتدخل مسيو رولاند في الحديث معضداً دعوة زوجته قائلاً:

– هذا أحسن من أن نقضي الأمسية في منزل خاو إلا منك.

وردت مدام روزيمللي قائلة:

– يسرني طبعاً قبول هذه الدعوة اللطيفة، فإنها تعطي خاتمة جميلة لهذا اليوم المثير.

وسمع بيير الحديث، وكان شعور من الضيق قد أخذ يعتريه نتيجة لإحساسه أن مدام روزيمللي لا تهتم به وتمتم في صوت خفيض قائلاً:

– ها هي الأرملة قد بدأت تحفر قبر أحدنا.

وخرجت هذه الملاحظة من فمه دون أن يسمعها أحد غير أخيه جان، الذي تألم كثيراً بينه وبين نفسه، إذ أحس أن بيير قد بدأ يشن حرباً على الأرملة، سلاحها التجريح والسخرية. غير أنه فضل ألا يتناقش معه حتى لا يتطور النقاش إلى مرحلة أسوأ.

سار الرجال الثلاثة خلف السيدتين دون أن يتبادلوا كلمة حتى وصلوا إلى المنزل وكان منزلاً صغيراً، يقع في شارع "بل" نورماند يتكون من ثلاث طوابق. وفتحت الخادمة "جوزفين" الباب وهي فتاة في نحو التاسعة عشرة نزحت من الريف المجاور بحثاً عن العمل الذي وجدته في خدمة آل رولاند، وسارت خلف سيدها وسيدتها وضيفتهما حتى وصلوا إلى غرفة الاستقبال ثم قالت في هدوء:

– لقد أتى زائر لكم اليوم ثلاث مرات.

وصاح فيها مسيو رولاند، وحسب عادته، لم يكن يخاطبها إلا وبعض الشتائم ترصع حديثه لها:

– من هو.. من هو بحق السماء؟

وكأنما تعودت جوزفين على طريقة سيدها في الحديث ولم يعد يزعجها صياحه أو شتائمه ولذا فقد أجابت بنفس النبرات الهادئة:

– قال إنه من طرف المحامي.

وازداد مسيو رولاند هياجاً وهو يقول لها كأنه يود لو يصفعها:

– أي محام يا ملعونة ؟!

وبنفس الهدوء ردت الخادمة:

– من عند مسيو كانو.

وسأل رولاند:

– وماذا قال؟

وأجابت الخادمة:

– قال أن مسيو كانو سوف يحضر هنا بنفسه في المساء.

وكان مسيو كانو محامياً تربطه بمسيو رولاند بعض الصداقة بالإضافة إلى أنه كان وكيله في كل أعماله القضائية والمالية. وكان حضوره شخصياً يعني أن هناك أمراً هاماً وخطيراً يستدعي عدم تكليف أحد معاونيه، ولهذا فقد أحدث الخبر بين آل رولاند بعض القلق والإثارة، كما يفعل البسطاء أحياناً عندما يربطون بين حضور المحامي وبين توقع الشر من وراء هذه الزيارة.

وسادت فترة من الصمت بين الجميع قطعها مسيو رولاند قائلاً:

– ترى! ماذا يكون خلف هذه الزيارة؟

وضحكت مدام روزيمللي وقالت:

– لابد أنكم ورثتم شيئاً! فأنا دائماً فأل حسن وأجلب الحظ لمن أكون معه! ولكن آل رولاند لم يكونوا يتوقعون الموت لأي حد ممن يحتمل أن يترك لهم أي شيء يرثونه.

وأعملت مدام رولاند التفكير، ولأنها معروفة بذاكرتها القوية، فقد

أخذت تحصي كل من يمت لهم بصلة القربى، سواء من ناحيتها أو من ناحية زوجها وأخذت تعد شجرة العائلة ورقة ورقة، باحثة عن احتمالات الموت ومواطن الثروة التي يمكن أن تؤول إليهم..

وبعد قليل سألت زوجها في لهفة كأنما قد وضعت يدها على سر الموقف:

– قل لي يا والدي "وكانت تنادي زوجها بكلمة – والدي – عندما يكونان في المنزل لتدليله.. أما أمام الغرباء فلم تكن تناديه إلا بكلمة مسيو رولاند" أتتذكر اسم الزوجة الثانية لجوزيف لبيرو وأجاب زوجها قائلاً:

– نعم كان اسمها دوفيل ابنة متعهد الصحف

– هل أنجب منها جوزيف أطفال؟

– أظن.. أربعة أو خمسة

– ياه.. الاحتمال ضعيف في أن تكون الأنباء من ناحيتهم إذا..

وعاودت مدام رولاند التفكير، وبدا عليها أنها أصبحت مقتنعة تماماً بأن حضور المحامي متعلق بثروة هبطت عليهم من السماء ولم يعد يهمها من أي مصدر أتت، وكان ابنها بيير يعرفها جيداً.. يعرف أنها سريعة الإغراق في أحلام اليقظة، وأشفق أن يخيب أملها وتنتج زيارة المحامي عكس ما توقعت، وأراد أن يجنبها التعاسة التي يمكن أن تحس بها لو حدث ذلك فقال لها:

– اسمعي يا أمي.. لا تغرقي كثيراً في الخيالات. ولا تتوقعي أن يظهر لنا

عم أو خال في أمريكا يموت ويترك لنا ثروة طائلة.. كوني واقعية. والأمر لن يعدو أن يكون عرضاً للزواج يحمله مسيو كانو لشقيقي جان..

واندهش الجميع لقول بيير وآلم جان أن يمزح معه أخوه هذا المزاح السخيف خصوصاً في حضرة مدام روزيمللي وقال ليرد السهم إلى بيير:

– ولماذا أنا؟. وأنت أولى مني بالتبكير بالزواج.. ألست أنت الأكبر سناً؟

ثم إني لا أرغب شخصياً في الزواج الآن؟

ووجدها بيير فرصة ليزيد إحراج أخيه وقال في صوت ماكر:

– هل أنت في حالة حب إذا!

وتضايق جان، وقال:

– هل يلزم أن أكون في حالة حب لكي أعرب عن عدم رغبتي في الزواج الآن؟

ورد بيير:

– نعم. فهذا يعني أنك في حالة انتظار.

– فليكن.. إذا كان هذا سيريحك.

ولولا تدخل مسيو رولاند لاحتدمت المناقشة بين الشقيقين ولا يعلم إلا الله كيف كانت ستنتهي، غير أن الأب قال ليغير مجرى الحديث.

– يا لنا من أغبياء! نتعب أنفسنا في التفكير في شيء في منتهى

الوضوح. مسيو كانو صديقي وهو يعلم أن بيير يبحث عن وظيفة في الطب وأن جان يبحث عن وظيفة في القانون أيضاً..

– وربما وجد شيئاً مناسباً لواحد منكما.

وارتاح الكل إلى هذا التخمين، وما هي إلا دقائق حتى أعلنت جوزفين الخادمة انتهاءها من إعداد العشاء وصعد كل إلى غرفته ليغتسل ويستعد لتناول الطعام وبعد قليل التأم شملهم مرة ثانية حول مائدة الطعام في الطابق الأرضي وانشغلوا في تناول الطعام وسادت بينهم لحظات صامتة، غير أن رولاند عاود التفكير في زيارة المحامي وقال:

– يا له من أمر محير! إني لا أستطيع أن أمنع نفسي من التفكير في أمر هذه الزيارة لماذا لم يكتب لنا بما يريد؟ لماذا أرسل لنا مساعدة ثلاث مرات.. ولماذا يصر هو على الحضور بنفسه؟

وأجاب بيير الذي كان عند رأيه في عدم تهويل أمر هذه الزيارة وأن الموضوع لا يزيد أن يكون عروساً مناسبة وجدها مسيو كانو.. ربما له ولكن الأرجح أنها لأخيه.

– إن إصراره على الحضور بنفسه أمر طبيعي فربما يود الحصول على جواب عاجل لما أتى من أجله.

وبالرغم من ذلك فقد بدا القلق على الزوجين والابنين على السواء، وإن حاول أي منهم أن يتظاهر بغير ذلك. وكان هناك إحساس آخر يجمعهم وهو تضايقهم من وجود مدام روزيمللي كشخص غريب في هذا الموقف المتأزم مما قد يصيبهم بأي حرج عند المناقشة، أو اتخاذ قرار فيما يمكن أن يتأتى!

وما كاد الجميع يفرغون من تناول الطعام، حتى انتقلوا إلى غرفة الاستقبال ومرت دقائق أخرى ثم سمع قرع جرس الباب الخارجي وتتبعت آذانهم أقدام جوزفين وهي متوجهة لتفتح الباب ثم ما لبثت أن أعلنت قدوم مسيو كانو.

خف رولاند لملاقاة القادم وقال له مرحباً:

–كيف حال محامينا العزيز؟

ونهضت مدام روزيمللي، بعد أن استقبلت تحية مسيو كانو وردت عليها مستأذنة في الانصراف قائلة:

– اسمحوا لي أن أنصرف الآن حتى إني أشعر ببعض التعب.

وتظاهر أكثر من واحد منهم بإبداء رغبته في أن تطيل جلستها قليلاً غير أنها صممت على الرحيل لتترك لهم فرصة مناقشة أمورهم في صراحة وحرية. ولم يحاول أي من الرجال الثلاثة – رولاند وولديه – أن يعرض عليها أن يوصلها إلى منزلها كما كانوا يفعلون في المرات السابقة.

قالت مدام رولاند موجهة حديثها للمحامي:

- هل لك في قدح من القهوة يا مسيو كانو؟

– غير أن المحامي رد قائلاً:

– لا شكراً.. فقد تناولت العشاء قبل حضوري إليكم مباشرة ولا أحب تناول القهوة بعد العشاء.

– إذن.. ما رأيك في قدح من الشاي؟

– لن أرفض.. لكن من المستحسن تأجيله قليلاً، فلدينا ما هو أهم من الشاي الآن.. ولنبدأ العمل أولاً.

وأعقبت كلماته حالة من الصمت والترقب.. لم يكن يسمع خلالها إلا دقات الساعة الرتيبة المعلقة على الحائط، وصوت جوزفين وهي في المطبخ تغسل الأطباق المتخلفة عن العشاء.. وكانت من الغباء بمكن حتى إنها نسيت أن تتصنت على الأسرة لترى سر الزيارة العجيبة!

وكسر حدة السكون صوت المحامي وهو يقول موجهاً الحديث إلى مسيو رولاند:

– هل كنت تعرف شخصاً باسم مارشال.. ليون مارشال، عندما كنتم تقيمون في باريس؟ تبادل الزوجان نظرة قصيرة.. ثم أجاب رولاند:

– نعم..

وعاد المحامي يسأل:

– هل كان صديقاً لكم؟

وأجاب رولاند في لهجة مؤكدة:

– بل كان أحسن أصدقائنا.. ولكنه كان مغرماً بالحياة في باريس ولا يحب أن يقيم في أي مكان آخر سواها وهو يعمل في وظيفة رئيسية في وزارة المالية..

ثم توقف عن الحديث لحظة قصيرة. قال بعدها:

– غير إني لم أره منذ ان غادرنا باريس وأتينا للإقامة في لوهافر..

وانقطعت الصلة بيننا.. حتى الرسائل لم نتبادلها منذ ذلك الوقت..

وانتظر مسيو كانو حتى انتهى مسيو رولاند من حديثه ثم قال بلهجة هادئة حزينة:

– لقد مات مسيو مارشال.

وكان الخبر مفاجئاً لكلا الزوجين، وسهم كل منهما من وقعه بينما استمر كانو قائلاً:

– لقد أخبرني أحد زملائي المحامين المقيمين في باريس بموجز الوصية التي تركها مارشال، وترك فيها كل ثروته لابنكم جان رولاند.

ولم ينبس أي من آل رولاند بكلمة، ذلك لأن الخبر ألجمهم جميعاً. وكانت مدام رولاند هي أول من استطاع الخروج عن دائرة الصمت التي أطبقت على الجميع، فقالت والدموع تكاد تسيل من عينيها:

– يا إلهي.. مات ليون العزيز.. يا للمسكين!

وانهمرت دموعها.. دموع صامتة صادرة من القلب، تعبر عن الحزن ولأن الحزن حقيقي، فقد أتت الدموع ساخنة مشحونة بالألم..

هذا.. بينما لم يشعر مسيو رولاند بالحزن على الفقيد بقدر ما شغل باله بمستقبل ابنه جان، وإن لم يجرؤ بالطبع على أن يسأل مسيو كانو مباشرة وبسرعة، عن تفاصيل الوصية أو عن مقدار الثروة التي ورثها ابنه. وليمهد لنفسه مدخلاً للحديث في الموضوع الذي يشغل باله، سأل كانو:

– وكيف مات مارشال المسكين؟

ولم يكن لدى كانو أية فكرة عن هذا الموضوع ولذا فقد أجاب بقوله:

- لا أعرف بالضبط. كل المعلومات التي عندي هي أنه توفي دون أن يكون له أي وريث، وأنه ترك كل ثروته وهي كبيرة وتدر دخلاً محترماً لابنكم جان الذي كان حاضراً ساعة ميلاده، ولذا —فقد كتب وصيته باسمه وإذا لم يقبل جان الوصية فإن الأموال تحول إلى أحد ملاجئ تربية الأطفال اليتامى.

ولم يستطع رولاند العجوز أن يخفي فرحته بهذه الأنباء السارة وتمتم قائلاً:—

- يا له من صديق كريم.. لم ينس أصدقاءه حتى في موته.

وابتسم مسيو كانو وهو يقول:

- كنت أعلم أن هذا الخبر سيدخل السرور إلى نفوسكم ولذا فقد آثرت أن أزفه إليكم بنفسي، فمن الأمور المباحة للإنسان أن يحمل خبراً سعيداً إلى شخص آخر.

وكان المحامي يعلم تماماً أن الخبر السعيد المقصود، ليس وفاة صديق العائلة التي بدا وكأنهم نسوه تماماً.. وأن الثروة التي نجمت عن هذه الوفاة والتي آلت إلى أحد أفرادها. وكان بيير وجان جالسين في صمت حتى الآن، بينما كانت دموع الأن لم تزل تتساقط من عينيها وهي تجاهد في منع بعض أهات الألم التي ودت لو كانت بمفردها لتطلقها معبرة عن حزنها الشديد لوفاة مارشال.

وتمتم بيير في صوت خفيض قائلاً:

- لقد كان رجلاً كريماً طيب القلب، وطالما دعاني أنا وجان إلى الغذاء..

وكان جان جالساً يسمع، وقد أمسك ذقنه بيده وبدا منفعلاً لا يدري كيف يتصرف ولا ماذا يقول، وأكثر من مرة تحركت شفتاه في محاولة للحديث غير أنه لم يستطع أن يختار الكلمات المناسبة، وأخيراً التقط ما أورده أخوه من معنى، وقال معقباً:

– كان حقاً مغرماً بي منذ الصغر، وكثيراً ما قبلني عندما كان يأتي؟

ولكن أفكار والدهم لم تكن تدور حول هذه الذكريات البعيدة بل كانت تغوص في أغوار المستقبل.

كانت تحلق مع الوصية والثروة التي كانت بالأمس ملك مارشال وها هي اليوم ملك ابنه العزيز جان! لكن.. هل أصبحت الثروة حقاً ملكاً لجان؟ ألا يوجد لمارشال أقارب أو ورثة قد يظهرون في أي وقت ويطالبون بالثروة. والتفت إلى كانو وسأله:

– قل لي يا مسيو كانو.. ألا يوجد لمارشال قريب هنا أو هناك.. يكون مستحقاً للميراث.. ومن الجائز أن يعارض في هذه الوصية؟

ورد كانو بلهجة مؤكدة قاطعة:

– أبداً.. وقد أخبرني زميلي المحامي في باريس أن الموضوع في غاية الوضوح، وكل ما نريده، لكي تصبح الوصية نافذة المفعول – هو أن يوافق جان..

وارتاح مسيو رولاند للرد، وأطلق سؤالاً آخر كان يجول في خاطره:

– وهل تم حصر الثروة؟

ورد المحامي كانو قائلاً:

– نعم..

ثم سأله رونالد:

– وتم عمل كل الإجراءات الرسمية.. أليس كذلك؟

وأجاب كانوا بالإيجاب..

وكأنما أحس رولاند بالحرج من أسئلته المتتابعة التي انصبت كلها على الوصية والثروة، دون أن يذكر صاحبها وسببها الراحل المسكين ليون مارشال بكلمة رثاء واحدة، ويبدو أن ضميره أنبه، أو خجل من أن يبدو هكذا أمام مسيو كانو فقال في لهجة اعتذار:

– لعلك تدرك يا مسيو كانو سر أسئلتي هذه.. فإني حريص على أن أجنب ابني أية خيبة أمل أو مشقة قد تنشب من ملابسات هذه الموضوع. ففي أحوال مماثلة قد تظهر بعد قبول الوصية ديون على المورث أو مطالبات أو أي شيء حتى ليجد المرء نفسه محاطاً بدائرة محكمة من المشاكل. وعلى كل حال فأنا لست الوريث.. غير أن كوني والده يجعلني مسئولاً عن حماية مصالحه.

وكأنما أفاقت مدام رونالد فجأة من حلم غرقت فيه بكل مشاعرها وتذكرت ما سمعته في مطلع زيارة كانو.. ثم قالت كأنها غير متأكدة مما سمعت:

– هل قلت أن مارشال ترك كل ثروته لجان؟

وردكانو قائلاً:

– نعم يا سيدتي..

وأراحها الرد وقالت في هدوء:

– هذا جميل.. إنه يدل على أنه كان يحبنا.. ويفكر فينا وتساءل رولاند في لهفة:

– هل تحب أن يوقع لك جان الآن أية أوراق يا عزيزي المحامي؟

وردكانو قائلاً:

– لا. ليس الآن. بل أود لو تكرمتم بالحضور إلى مكتبي غداً الساعة الثامنة إذا كان هذا الموعد مناسباً لكم.

ورد رولاند بسرعة:

– مناسباً جداً.

ونهضت مدام رولاند من مقعدها.. وابتسمت بعد طول بكاء ثم خطت خطوة ناحية كانو وأسندت ذراعها على حافة المقعد الجالس عليه، ونظرت إليه نظرة شاكرة وقالت:

– أظن أنك لن تمانع في تناول الشاي الآن؟

وأجاب رولاند:

– يسرني ذلك يا سيدتي..

ونودي على الخادمة وألقيت إليها التعليمات، وبعد برهة عادت وهي

تحمل طبقاً عليه بعض قطع البسكويت ثم خرجت وعادت بالمناشف الجديدة التي لا تقدم إلا في المناسبات الخاصة وخرجت وعادت مرة ثالثة ببراد الشاي والأقداح الصينية التي كانت تخشى مدام رولاند عليها من الكسر، ولذا فلم تكن تسمح لجوزفين بالاقتراب منها أو استعمالها.. وأخيراً وللمرة الرابعة دخلت جوزفين ومعها إناء السكر، ووضعته وانصرفت لتحضر إناء الماء المغلي..

وجلس الجميع صامتين يشاهدون جوزفين وهي تدخل وتخرج هذه المرات الكثيرة دون أن يعلقوا بكلمة بل آثروا الانتظار حتى تفرغ من تجهيز الشاي.. وكان كل منهم يفكر وإن لم يكن يتكلم، ورأت مدام رولاند أن تقطع هذا الصمت بأي حديث.. فلم تجد غير رحلات الصيد، والقارب.. ومدام روزيمللي.. لتتخذ منهم موضوعاً لأحاديث شتى.. كانت موجهة في الغالب إلى مسيو كانو.. بينما وقف رولاند بجوار المدفأة المطفأة وقد وضع يديه في جيوبه وانبعث من فمه صفير خافت للحن مرح حرص ألا يسمعه أحد سواه، أما بيير وجان فقد جلسا قبالة بعضهما وقد وضع كل منهما ساقاً على ساق، غير أن جلستهما وإن تشابهت إلا أن الانفعال الذي كان يعبر عنه وجه كل منهما كان مختلفاً تمام الاختلاف.

وأخيراً دخلت جوزفين بإناء الماء المغلي وأصبح الشاي مهيأ للشاربين، وتناول مسيو كانو قدحه وبعد أن شربه نهض ومده يده مصافحاً آل رولاند، وقبل أن ينصرف حرص مسيو رولاند على أن يتأكد من الموعد فقال لكانو:

– موعدنا معك غداً في مكتبك.

ورد كانو مؤكداً:

– نعم.. الساعة الثامنة تماماً.

وانصرف..

ولم يتكلم جان.. وسادت بين الأسرة فترة أخرى من الصمت. ثم توجه رولاند إلى حيث جلس جان وخبطه على ظهره مداعباً وهو يقول:

– حسناً أيها الشحاذ الصغير.. ألا تعطي والدك قبلة تعبر بها عن سعادتك؟

وابتسم جان وقبل والده وهو يقول:

– ما دمت تجد هذا ضرورياً.

ولكن رولاند كان قد بلغ مرحلة من الإثارة صعب معها أن يستعيد هدوءه. فكان كالطفل السعيد، يتحرك هنا وهناك يضرب الكرسي بيده، أو يضحك، أو يضع يديه على رأسه كمن لا يصدق ما يعتمل برأسه من أفكار، وكان يصيح بين الحين والآخر قائلاً:

– يا له من حظ سعيد!. يا لها من ضربة حظ كبيرة.

وسأله بيير:

– هل كنتت تعرف مارشال معرفة وطيدة عندما كنت في باريس؟

وأجاب رولاند في دهشة:

– أعرفه! يا للسماء! لقد كان يزورنا كل ليلة يا بني. كما أنك لابد تذكر أنه كان يأخذكما من المدرسة في أيام العطلات لتتناولا طعام

الغذاء معه.. ثم إنه هو الذي استدعى الطبيب لوالدتك يوم ولادة أخيك جان. كان مدعواً عندنا للغذاء وعندما فاجأت آلام الولادة والدتك، خرج مسرعاً ليستدعي الطبيب. حتى أنه من عجلته نسى وارتدى قبعتي بدلاً من قبعته.. نعم. فأنا أتذكر هذا الحادث جيداً. وإننا كثيراً ما تذكرناه بعد ذلك، وضحكنا عليه من أعماق قلوبنا. ولابد أن تذكره وهو على فراش الموت. لا قريب ولا وريث، ولذا فمن المؤكد أنه قال لنفسه "حسناً يا مارشال.. لقد أسهمت في ولادة هذا الطفل، ولذا فهو أحق من أن تترك له الثروة من بعد موتك".

وقالت مدام رونالد في صوت هادئ حالم وهي تجلس مسترخية على مقعد مريح وعينها نصغ مغمضة كأنما تستعيد ذكريات سنين خلت..

– يا له من صديق كريم!

ونهض جان من مقعده فجأة وقال:

– سأخرج لأتمشى قليلاً.

واندهش والده من هذه الرغبة الغريبة، وود لو يمنعه لأن هناك أموراً توجب مناقشته فيها، ولكن جان كان مصمماً على الخروج وادعى أن لديه موعداً لابد من الوفاء به، وإزاء هذا الإصرار لم يجد الوالد بداً من تركه يخرج، خاصة بعد أن أقنع نفسه أن الوقت لا يزال متسعاً ليتحدثا كيفما يشاء قبل أن يحل موعد المحامي غداً.

خرج جان لأنه أحس برغبة في أن يتخلى بنفسه ليفكر.. وما هي إلا دقائق قليلة حتى أعلن بيير أيضاً عن رغبته في الخروج قليلاً..

وعندما لم يصبح في الغرفة سوى رولاند وزوجته طوق رقبتها بذراعيه وأمطر وجهها بعشرات القبل وقال لها:

– ها قد هبطت علينا ثروة من السماء يا عزيزتي.

وردت الزوجة قائلة:

– نعم.. ولكنها هبطت في حجر جان. فماذا عن بيير؟

وصمت الوالد برهة.. يفكر في قول زوجته، ثم قال:

– إن بيير طبيب وشاب، وسيكسب كثيراً عندما يمارس مهنته.. هذا إلى جانب أن جان لن يتركه دون أن يعطيه قدراً من ثروته الجديدة.

ولكن مدام رولاند قالت:

– لا أظن.. وإن فعل فلن يقبل بيير. والوصية لجان فقط وهذا سيعطي بيير احساساً خاصاً.

وفكر الوالد قليلاً ثم قال:

– على كل حال يمكننا أن نزيد نصف نصيبه قليلاً في وصيتنا.

ولكن زوجته اعترضت قائلة:

– حتى هذا لم يكون عملاً منصفاً لكليهما.

وضاق رونالد بمخاوفها ذرعاً وصاح بعد أن نفذ صبره..

– اللعنة. وماذا يمكنني ان أفعل إذن. إنك تسدين على الطريق أمام كل فكرة أقولها على كل حال. لقد حان وقت النون الآن. ومهما

كانت مخاوفك، فإن هذا لا ينفي أن الحظ خالف جان.. كثيراً..

وتركها وانصرف سعيداً رغم كل شيء، وغم الصديق الميت الذي ترك لابنه ثروته والذي لم يحظ منه بكلمة رثاء.

وغاصت مدام رولاند في مقعدها.. وغرقت في لجة من التفكير.

الفصل الثاني



عندما وطئت قدماً بيير عتبة المنزل، اتخذ طريقه إلى شارع باريس، وهو الشارع الرئيسي في لوهافر حيث الضجة والأضواء والحياة التي لا تخمد في ساعات الليل أو النهار. وكان الشارع موازياً للبحر الذي هبت منه نسائم من الهواء المنعش المحمل باليود، فسرى في نفس بيير دبيب من النشاط، وسار وقد عقد يديه خلف ظهره، ووضع عضاه الرفيعة التي اعتاد أن يحملها كلما خرج بالليل تحت ابطه، وأطرق برأسه وغرق في تفكير عميق.

لم يكن يدري ماذا ألم به. كان قلبه يتلوى بين ضلوعه كمن تعتصره يد قوية. وشعر كأن ستارة سوداء قد نسجت في داخله.. فكست إحساسه بجو من الكآبة القاتمة، ولم يستطع بينه وبين نفسه– أن يعرف سر أو سبب هذا الوجوم الذي انتابه فجأة، والذي قلب مزاجه وأغرقه في هذا الجو النفسي المتوتر. كان يحس إنه جرح وأنه يتألم. بل يتلوى من الألم، ولكنه لم يستطع أن يحدد مكان الجرح، أو موضع الألم، ذلك لأن النفس البشرية المعقدة، تعطينا أحياناً إحساس الألم دون ان تدلنا على مسبباته أو دوافعه الكامنة.

وعندما وصل إلى ميدان المسرح، لفتت نظره الأضواء المنبعثة من مقهى التورتوني واندفعت قدماه إليها دون أدنى تفكير– وعندما لامست قدميه أعتابها وهم بأن يدفع الباب بيديه، تراجع فجأة، ذلك أنه أيقن أنه لابد وأن

يقابل بالداخل الكثير من معارفه وأصدقائه، وأن مجلسهم سوف يحمله على الكلام ولا يدع له فرصة للتفكير، ولذا فقد خطا إلى الخلف، وعرج إلى الشارع المؤدي إلى الميناء وواصل سيره فيه. كان يود أن يجلس في أي مكان.. ولكنه لم يكن يود في نفس الوقت أن يقابل أحداً، لأن ذلك سيمنعه من الاختلاء إلى نفسه، ويحرمه من فرصة التفكير والتأمل فيما مر على العائلة من أحداث خلال الساعات القليلة الماضية.

عندما وصل إلى رصيف الميناء، جلس على أحد القوائم الحجرية الكثيرة المتناثرة هناك والتي تستعمل في ربط السفن، ومد بصره إلى البحر الممتد أمامه إلى ما لا نهاية، وكان ليل الميناء حالك الظلام، تضيئه بضع مصابيح تناثرت هنا وهناك كما انبعثت من السفن الراسية بعض الأضواء التي أعلنت عن وجودها. قال لنفسه مفكراً:

– ماذا دهاني الليلة يا ترى؟

وراح يقلب فكره ببطء ودقة لعله يصل إلى أصل العلة التي اعترته وغيرت مزاجه.

حقاً ماذا دهى بيير.. أتكون وصية مارشال، والثروة التي تركها لشقيقه جان هي السبب.. لا.. عقله الواعي ينكر هذه الفكرة، ينكر أنه تضايق لأن ثروة هبطت على أخيه، ولكن عقله الباطن يصرخ من الأعماق ويقول نعم.. إنها تركة جان التي أحدثت فيه هذا التغيير! عندما أعلن المحامي خبر الثروة شعر بيير بدقات قلبه تزداد، وتزداد.. حتى لقد خشي أن يلاحظ أي أحد من الموجودين سرعة دقات قلبه.. وحاول جاهداً أن يسيطر على نفسه ولكن عبثاً

ذهبت محاولاته، ذلك لأن الإنسان ليس سيد نفسه دائماً، بل ربما كان خاضعاً لتيارات مختلفة من العواطف. هي التي تشكل سلوكه او تحكم تصرفاته. ما أحلى أن تهبط على الإنسان ثروة غير متوقعة، ترفعه من القاع إلى السطح، وتمكنه من الاستمتاع بملذات الحياة، وتساعده على تحقيق كل رغباته التي كان يتوق إليها والتي كان يمنعه عجزه المالي من إدراكها! هكذا سيكون حال جان يا بيير..

ونهض كمن لدغته عقرب.. اضطربت أفكاره وعواطفه، وسار.. وسار حتى هدأت أفكاره مرة ثانية.. وارتاح.. لأنه عرف مصد دائه، وسبب توتره وألمه، وكشف القناع عن نفسه.

إذن فأنا غيور من جان. يا لوضاعتي. لكن لم أغار منه.. آه.. ربما لأنه سيصبح قادراً على الزواج من مدام روزيمللي. هل أنا مهتم بهذه المرأة.. أبداً، هي جميلة نعم، ولكني لا أشعر نحوها بأي احترام.. إذن لماذا أغار من جان.. يا لتلك العاطفة التي تكمن في نفس الإنسان، كل إنسان.

وصل بيير في مسيره إلى اللوحة المثبتة على رصيف الميناء والتي توجد عليها نشرة بأحوال الجو، وقائمة بأسماء السفن القادمة إلى الميناء والمبحرة منه، والموعد المحدد لكل منها. وكانت قائمة السفن القادمة تتضمن سفناً آتية من البرازيل، من سانتا لانا، من سيلي، اليابان، النرويج، وتركيا. وخطا خطوات أخرى ثم توقف.. ورنا ببصره ناحية البحر ورأى الضوء الشديد المنبعث من الفنار وهو ينعكس على سطح الماء فيبدد بعض الظلام الموحش الذي خيم على البحر كله، وكان شعاعا الضوء المنبعثان من مصباحي الفنار المتلاصقين يشبهان ذيل مارد كوني ضخم. وكان يوجد في مدخل الميناء

فناران متشابهان ليحددا معالم الميناء وتناثرت في داخل البحر – عن بعد– فنارات أخرى، تنبعث منها أضواء متقطعة، مختلفة الألوان، كأن أشعتها أذرعة مفتوحة، ترحب بالسفن القادمة وترشدها إلى طريق الأمان.

وقف بيير طويلاً وسرح ببصره عبر الماء، وكان يحاول أن يطرد من أسه الفكرة الرئيسية التي ألحت عليه وهي الثروة التي آلت إلى أخيه، ولكن دون جدوى..

تبدأ الفكرة في رأسه نقطة صغيرة ثم تنزاح شيئاً فشيئاً، في دوائر متسعة كالدوائر الناتجة عن قذف حجر في البح، حتى تملأ الفكرة كيانه.. وتكاد تهزه في عنف، ويبذل بيير أقصى ما في وسعه ليسيطر على نفسه. وتكبح الفكرة ويهدأ، ثم لا تلبث أن تبرز من جديد.

عاود بيير المسير في طريق الميناء، وكلان القمر قد توسط السماء فبدا كفنار خالد يقف شامخاً بين ملايين النجوم التي ترصع السماء، وعندما أدار بيير رأسه ناحية اليمين، كشف له ضوء القمر عن شبح شخص فوق قارب صغير يتهادى ناحية المرسى في هدوء، ولم يكن ينبعث من القارب، ولا من المجدافين ولا من الشخص نفسه أي صوت ينم عن وجوده. ولما اقترب القارب من المرسى، مال راكبه ليربطه بالحلقة الحديدية المثبتة في باطن رضيف الميناء، وأثار ضوء القمر، ومنظر القارب وسكون الليل، شاعرية في نفس بيير، وود لو أنه قضى حياته على قارب مثل هذا القارب.. بعيداً عن الناس، ليعيش في سلام. ولما اقترب بخطوات أخرى، كان راكب القارب قد انتهى من تثبيت قاربه، وجلس على حافة الرصيف مدلياً ساقيه حتى كادتا تصلان إلى الماء، وجلس شاخصاً ببصره إلى المياه الممتدة أمامه في لا نهائية.

وتساءل بيير بينه وبين نفسه- أيكون هذا الجالس عاشقاً أتى ليبث للبحر هواه، أم حزيناً يفرج عن كربه في هذا الخلاء! ودفعه الفضول إلى أن يقترب منه أكثر، وخطا خطوات حتى أصبح بالقرب من الشخص الجالس الذي لم ينتبه إلى القادم لفرط إغراقه في أفكاره وفوجئ بيير وهو يدقق إليه النظر.. أنه أخوه جان.

وصاح في دهشة:

- يا إلهي! أهذا أنت يا جان؟

وفوجئ به جان.. غير أنه لم يلبث أن ضحك وهو مازال في جلسته وقال:

- نعم.. وأنت.. ماذا جاء بك إلى هنا؟

ورد أخوه:

- أشم الهواء أيضاً..

وجلس بيير بجوار جان، ودلى رجليه تماماً مثله.. وشد نفساً عميقاً من هواء البحر ثم قال:

- ليلة جميلة.. أليس كذلك؟

ورد جان:

- نعم.. بكل تأكيد.

وواصل بيير حديثه قائلاً:

- عندما أتيت إلى هنا الليلة ملني إحساس مجنون.. بالرغبة في الإبحار مع أي من هذه السفن شرقاً أم غرباً.. انظر إلى كل هذه السفن

المتناثرة هنا وهناك؟ من جميع أنحاء العالم.. من بلاد تنبت فيها الأزهار وتطوق بها الفتيات الجميلات جيدهن.. فتيات في بياض القمر أو صفرة النحاس أو سمرة الأرض.. بلاد تمرح فيها الأفيال في شوارعها في ألفة كأنها أطفال أبرياء.. أو تعيش فيها الأسود الكاسرة.. بلاد يحكمها ملوك من أهلها.. وبلاد أخرى يحكمها ملوك من غير أهلها.. فكر معي يا جان، ألن تكون رحلة ممتعة لو لف فيها الإنسان العالم كله؟ لكن للأسف مثل هذه الرحلة تحتاج إلى مال.. مال وفير..

وتوقف عن الكلام فجأة، لأنه تذكر أن جان أصبح يملك هذا المال.. وأنه – أي جان – قد أصبح حراً من أي التزام في الحياة ويستطيع أن يعيش دون أن يقلقه عمل يتكسب منه، يمرح كيفما يشاء، هنا .. أو في باريس.. أو في أي مكان في العالم.. يشتري السعادة بماله، ويمتع شبابه، ويملأ أيامه بهجة وسروراً. ولمع في نفسه خاطر.. لا يدري لم الح عليه في هذه اللحظة، وهو أن جان، ربما يتزوج من مدام رزويمللي أيضاً!.

ونهض من مكانه واقفاً وقال لجان:

– سأتمشى قليلاً..

ثم صافح أخاه وقال في لهجة دافئة:

– أنت الآن غني يا جان. وإني لمسرور إذ وجدتك الآن، وأتيحت لي الفرصة لأتحدث غليك بمفردك.. وأخبرك إني سعيد يا جان.. سعيد لما أصابك من حظ.. حتى لكأنه حظي انا.. فإني أحبك يا جان.

وتأثر جان بما قاله بيير وقال:

– أشكرك جداً يا أخي العزيز.

وترك بيير شقيقه وانصرف، ميمماً وجهه شطر المنزل، وعصاه الرفيعة تحت إبطه، ويداه معقودتان خلف ظهره، ورأسه معلق بقدميه، يتابع خطواته البطيئة.

وعندما ترك منطقة الميناء، ووجد نفسه وسط المدينة مرة ثانية، أخذ يفكر في عدم الذهاب إلى المنزل لقد كان يروم عندما اتجه إلى الميناء أن يبقى وحيداً مع أفكاره، ولكن خطته لم تنجح وأفسد وجود أخيه خلوته المنشودة، وخطر له أن يتجه إلى ماروفسكو العجوز ليتناول عنده مشروباً وليقضي معه بعض الوقت، وما إن داخلته الفكرة حتى يمم وجهه شطر حتى أنجو فيل.

كان بيير قد قابل ماروفسكو العجوز في مستشفيات باريس حيث تعرف عليه. وكان ماروفسكو هذا لاجئاً سياسياً عجوزاً يتقول الناس إن جنسيته بولندية، وأنه لاقى بعض المتاعب السياسية في بلده آثر بعدها الهجرة إلى فرنسا حيث استقر وزاول مهنته ككيماوي وصيدلي بعد أن أجرى له المسئولون عدة اختبارات علمية. وتطايرت حول العجوز بعض الشائعات، بعضها يقول إنه كان عضواً في إحدى المنظمات السرية في وطنه، وأنه كان يقوم بأعمال وطنية بطولية معجزة، وأنه حكم عليه بالإعدام لولا أنه تمكن من الهرب إلى فرنسا. وملأت هذه الشائعات والأقاويل خيال بيير الذي أصبح صديقاً مقرباً من ماروفسكو.. وكان هو الذي شجعه على هجرة باريس والإقامة في لوهافر، أملاً في عملاء الدكتور بيير الذين قد يصبحون عملاء بالتالي.

وفي لوهافر، استوطن ماروفسكو في أحد الأحياء الفقيرة وافتتح محلاً متواضعاً يبيع فيه الدواء لعملائه من العمال الذين يعيشون في نفس الحي. وكان بيير متعوداً أن يزوره في هذا المحل ليتحدث معه قليلاً، وليستعيد

ذكريات باريس، وكان بيير معجباً بشخصية ماروفسكو وطبيعته التي تمثل الصمت أكثر منها إلى الكلام الكثير.. وكان بيير يعتقد أن وراء صمت العجوز خبرات ينوء كاهله الواهن بحملها.

عندما دخل بيير المحل وجد ماروفسكو جالساً خلف البنك في استرخاء وصمت، وقد فرد رجليه أمامه في لا مبالاة، والمصباح الغازي الصغير معلق فوق رأسه، يبدد نوره الخافت ظلام المحل ولأمور تتعلق بالتوفير طبعاً حرص العجوز على ألا يضيء المصباح الآخر الكبير لعدم وجود داع ملح له. وكان يجلس في جانب آخر من المحل رجل عجوز آخر سمين أكرش مشعث الشعر أسند ذقنه إلى يده، وأغمض عينيه ونام وقد تدلى لغده على صدره كعرف الديك الرومي السمين.

نهض ماروفسكو يستقبل بيير، وأقبل عليه مرحباً بكلتا يديه، وكان قميصه وبنطلونه ملطخين ببقع الأحماض وتفوح منهما روائح متداخلة كثيرة، وكان صوته جهورياً اعترت فرنسيته لكنه أجنبية جعلت كلماته تبدو بطيئة كالتلميذ الذي يتهجى أيضاً لاتينياً.. وبعد أن أجلس بيير نفسه على أحد المقاعد سأله ماروفسكو:

– هيه.. ما هي الأخبار.. يا عزيزي الدكتور؟

ورد بيير قائلاً:

– لا يوجد جديد في الأخبار.. العالم ما زال كما هو!

ولحظ ماروفسكو آثار التفكير بادية على وجه بيير، ولمس بخبرة سنين حياته – أن بيير ليس كعادته ولذا فقد قال له:

– إنك لا تبدو مرحاً الليلة كعادتك يا دكتور..

وكمن يدفع عن نفسه شبه اتهام، أسرع بيير قائلاً:

– أبداً.. أنا هكذا كل ليلة!

– حسناً.. إن كأساً من شرابي كفيلة بحل عقدة لسانك.. هل لك رغبة في كأس؟

وأجاب بيير في لهفة:

– طبعاً.

وابتسم ماروفسكو، فقد كان يعرف أن بيير في غنى عن سؤاله عن رغبته، ولذا فقد شمله بنظرة ودودة وقال:

– وهو كذلك.. سأجعلك تتذوق كوكتيلاً جديداً توصلت إلى تركيبه بنفسي حديثاً، ذلك أني مكثت في الشهرين الأخيرين أجرب أنواعاً مختلفة من المواد لم تستعمل حتى الآن إلا في صنع مشاريب الأدوية، ولكني استطعت بفضل دأبي وتجربتي على أن أستخلص منها خموراً لذيذة الطعم ومفيدة في الوقت نفسه.. وكانت النتيجة مدهشة ورائعة.

وكان ماروفسكو يتكلم في سعادة الطفل الذي يحكي خبر نجاحه في الامتحان. واتجه إلى أحد الدواليب الموجودة في المحل، وأخرج منه زجاجة أحضرها معه ووضعها أمامه على البنك، بينما بيير يرمقه في صمت وترقب.

كان ماروفسكو يخطو خطوات قصيرة، ثم لا يكملها وإذا مد يده ليتناول شيئاً، لم يكن يمد يده إلى نهاية امتدادها، وعندما يفعل شيئاً لا يتمه،

وعندما يقول شيئاً لا ينهيه وعندما يقنعك بشيء فإنه يترك شعاعاً من الشك عالقاً بأدلته.. هكذا كان..

كان ولعه بتركيب الشراب أكبر من ولعه بتحضير الدواء. وكانت فكرته تتلخص في أنه لو نجح في الوصول إلى تركيبة جيدة من الشراب فربما درت عليه ثروة طائلة لو استغلها استغلالاً تجارياً.. ولقد اخترع مئات الأنواع من المشروبات السكرية ولكن اختراعه كان دائماً ينتهي في زجاجة يصبها لنفسه ويشربها ليفكر في غيرها.

وهكذا رفع بيير كأسه بعد أن ملأه بشراب ماروفسكو الجديد.. ونظر إليه في ضوء المصباح الخافت ليختبر لونه، ثم قال:

– لون رائع.. أحمر غامق.. في لون النبيذ.

وانفرجت أسارير ماروفسكو وهو يقول وقد سره إطراء بيير:

– ألم اقل لك؟

ورشف بيير حسوة من الكأس، ومصمص شفتيه، ثم نظر إلى ماروفسكو الذي كان شاخصاً إليه مترقباً نتيجة الاختبار الفعلي لمشروبه الجديد، ثم رشف حسوة أخرى وقال:

– حسناً جداً.. مذاق رائع. لقد توصلت إلى اكتشاف ممتاز هذه المرة يا عزيزي.

وانبسطت أساريره، وغمرته السعادة، وهو يقول:

– هل أعجبك حقاً ؟ هل أعجبك؟

ثم سأل بيير عن اسم يقترحه للمشروب الجديد، ولم ينتظر حتى يقترح عليه بيير أي اسم، بل صار يلقي هو بأسماء سبق له التفكير فيها من قبل، وكلما ألقى اسماً نظر إلى بيير ليستطلعه رأيه فيه، وكأن صمت بيير يعني عدم رضاه، أو تذوقه للاسم المقترح، وأخيراً، وبعد أن أفرغ ماروفسكو كل ما عنده نظر إلى بيير في حيرة وقال:

– ألا يوجد عندك اسم يناسب مذاق هذا الاختراع الذي أنفقت فيه شهرين من عمري، وستين سنة من تجاربي؟.

ونظر إليه بيير.. ثم قال بهدوء:

– فلنسمه إذن ماروفسكو.. لأن هذا سيخلد اسمك، ويجعل الناس يتذكرونك دائماً.

وراقب الفكرة للرجل، وغمرته سعادة فياضة عبر عنها بملئ كأس آخر من النبيذ..

وانقضت بعد ذلك برهة ران فيها صمت مطبق بين الرجلين، وأخيراً قال بيير:

– لقد حدث عندنا شيء غريب الليلة.

وتساءل ماروفسكو قائلاً:

– ما هو؟

– لقد مات أحد أصدقاء والدي، وترك كل ثروته لشقيقي الأصغر جان!

لم يبد على ماروفسكو أنه فهم ما قاله بيير، ولكنه عندما ركز حواسه على ما سمع ووعاه، قال لبيير:

– حسناً.. إذن فلك النصف وله النصف.

ولكن عندما شرح له بيير الأمر، وأفهمه أن الإرث كله لجان، استشاط العجوز غضباً، وردد مرات متعاقبة قوله: "لن يكون لهذا التصرف نتائج طيبة".

وعاود الغم بيير ورزحت على نفسه مرة ثانية تلك الغمامة السوداء التي قلبت مزاجه عندما خرج من المنزل، وسأل ماروفسكو عما يقصده بقوله أن هذا التصرف لن تكون له نتائج طيبة ولم لن تكون تلك النتائج الطيبة، وما هو الخطأ في أن يرث أحد الأخوين صديقاً للوالد ولا يرث الأخر الآخر مثله، ولكن العجوز رفض الإدلاء بأي تفسير بل اكتفى بقوله:

– في هذه الحالات، يجب ترك أنصبة متساوية لكلا الأخوين وإلا فالنتائج لن تكون طيبة.

ونفد صبر بيير وغادر ماروفسكو واتجه مباشرة إلى المنزل، ثم صعد دون أن يقابل أحداً إلى غرفته لينام. وأحس بأخيه في الغرفة المجاورة وهو يذرع الغرفة جيئة وذهاباً..

وبعد قليل.. استغرق بيير في النوم.

الفصل الثالث



استيقظ الدكتور بيير في الصباح وقد صمم أن يبدأ فوراً في البحث في أمر مستقبله، ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي يصل فيها إلى هذا التصميم، بل إنه في المرات التي غير فيها نوع دراسته كان يصمم كل مرة، ويعزم على أن يسلك الطريق الذي سيوصله إلى المستقبل اللامع والمكانة المرموقة والثروة الضخمة.. ويسير بقوة الدفع قليلاً حتى إذا ما صادفته أول عقبة، نكص على عقبيه وهبط عزمه وخبا تصميمه واستدار يبحث عن طريق آخر.

استلقى بيير في فراشه في تكاسل بين ثنايا الفراش الدافئ وتعلق ناظره بسقف الحجرة وراحت ذاكرته – على قدر ما استطاع – تذكر أسماء مشاهير الأطباء الذين استطاعوا من خلال ممارستهم للمهنة أن يجمعوا ثروات طائلة في وقت قصير.. "كل ما يلزمك يا بيير هو أن تعلم كيفية الوصول إلى الطريق" وفي أثناء دراسته في الجامعة مكنته الظروف من أن يتعرف على معظم أساتذته تقريباً، وكان رأيه فيهم هو أنهم كالحمير تماماً وأنهم ليسوا أحسن منه بل يمكن – بلا غرور – أن يقول أنه أحسن منهم جميعاً. فإذا ما أمكنه أن يمارس المهنة بنجاح، ويلمع اسمه في لوهافر فإن ذلك سيدر عليه دخلاً كبيراً قد يربو على المائة ألف فرنك كل عام.

وصرح بخياله لدرجة أنه بدأ في ترتيب برنامج يومه عندما يصبح طبيباً مشهوراً.. الصباح لزيارة المرضى في منازلهم، لنفرض أنهم عشرة.. وأتعاب

عيادة المريض عشرين فرنكاً.. فإن هذا يعني مائتي فرنك في اليوم في فترة الصباح فقط أي ٧٢٠٠٠ فرنك كل سنة.. بل ربما ٧٥٠٠٠ لأن عشرة مرضى في اليوم هو دون المتوسط الذي يطمع فيه. أما بعض الظهر، فسيستقبل المرضى بعيادته ربما عشرة أيضاً في المتوسط كل يوم وسيجعل رسم الكشف في العيادة عشرة فرنكات فقط.. أي مائة فرنك يومياً في فترة بعد الظهر أيضاً وهذا معناه ٣٦٠٠٠ فرنك سنوياً أيضاً.. يا له من دخل محترم مضمون مائة في المائة.. وما أسهل الوصول إلى الشهرة في رأي بيير. إن الأمر لن يلزم أكثر من قليل من الجهد الذكي المنظم الخبير في فن الدعاية والإعلان. خب صغير ينشر مثلاً في صحيفة الفيجارو فيه أن أساتذة الطب في باريس يهتمون ببعض الحالات الميئوس منها والتي عالجها دكتور بيير رولاند في لوهافر وانتهى علاجه بمعجزة الشفاء.. أو شكر ينشر في سواردي باري على أن مريضة ثرية ترفع أكف الضراعة إلى الله لأنه وهب أنامل الدكتور بيير إعجازاً خارقاً فشفيت بعد أن ترددت على عيادات الأطباء عشرات السنين أشياء مثل هذه تخلف له الشهرة، والشهرة تتبعها الثروة، وسيكون أغنى من شقيقه جان، بل وسيكون أسعد منه، لأن ثروته ستكون من عرق جبينه، وكدة، ولن يكون لأحد فضل عليه أبداً.

سيكون باراً بأبويه الذين ستسكرهم نشوة شهرته، لن يتزوج.. فالزواج في نظره قيد سقيم.. وهو يفضل أن يكون كالطير الطليق، يتنقل من فن إلى فنن، أو كالفراشة يتذوق رحيق أبهى الأزهار!

عند هذا الحد من خياله اليقظ تشبع بيير بنشوة الأمل، وقفز من سريره في نشاط يريد تحقيق المستقبل كما رسمه، وفي لمح البصر، ارتدى

ملابسه وما هي إلا دقائق حتى كان خارج المنزل، يجوب الشوارع بحثاً عن شقة مناسبة ليجهزها ويتخذها عيادة له.. وكان يقول لنفسه مستخفاً:

"إن الأسباب التي تدفع الإنسان إلى العمل.. قد تكون في كثير من الأحيان أسباباً تفاهة، الأمر الذي كان يجب عليه أن يعمله منذ أسابيع خلت لولا كسله وتأجيله البدء يوماً بعد يوم.

وفي أثناء بحثه كان يتوقف أمام المنازل المعلقة على أبوابها إعلانات تدل على وجود شقق خالية معروضة للإيجار.. ولم يكن يهتم بالطبع إلا بالشقق الفاخرة، المتسعة، حيث يدخل ويعاين، ويقيس اتساع الحجرات، وارتفاع السقف، ومواقع الغرف. ثم يبدأ في ذهنه عمالية إلباس الشقة ثوب العيادة.. هذه تصلح غرفة للكشف، وتلك تصلح للانتظار.. هنا للسيدات، وهنا للرجال.. ودورات المياه.. والسلم هل هو عال أو منخفض، متسع مريح في الصعود والهبوط، أم شاق على عملائه المترقبين من المرضى.. وأخيراً يدون كل هذه البيانات في مفكرة صغيرة وينصرف باحثاً عن غيرها..

واستغرقت هذه المهمة المراهقة كل فترة الصباح. زار فيها أكثر من عشر شقق، ودون بياناتها في مفكرته، غير عشرات أخرى، لم يعجبه منظر المنزل أو موقعه أو وسط سكانه، ومستوى معيشة الحي.. ووصل المنزل متأخراً عن موعد الغداء بما يقرب من ربع الساعة.. ولكنه عندما دلف من الباب. وصل إلى سمعه صوت الأسرة وهي تتناول الطعام دون أن يكلفوا أنفسهم مشقة انتظاره.. لماذا؟ إنهم ليسوا معتادين الدقة المطلقة في مواعيد الطعام وفي مرات سابقة كان يتأخر أكثر من هذه المرة، وكانوا ينتظرونه

أيضاً.. إلا اليوم! وشعر بألم يعتصر قلبه. وعندما أطل عليهم وهم جلوس حول المائدة قال له والده وهو يمضغ الطعام.

– هيا أسرع يا بيير.. اتخذ مجلسك. ألا تعرف إنه يجب علينا أن نكون بمكتب المحامي في الساعة الثانية تماماً؟ اليوم لا يناسبه التلكؤ يا بني..

اقترب بيير من مجلس أمه، وقبلها على وجنتيها كعادته ثم جلس على كرسيه المعتاد دون أن ينبس ببنت شفة، وابتدأ يتناول طعامه الذي بدأه بتناول شريحة اللحم التي أبقوها له، وكانت باردة.. وقال في نفسه إنها لابد وأن تكون أردأ القطع التي تناولوها..

وقال جان موجهاً الحديث لوالدته مواصلاً ما كان يقوله قبل دخول بيير:

– هذا ما يجب علي أن أفعله. يجب أن أظهر أمام الناس في مظهر براق حتى أجذب انتباههم واختلط بعلية القوم في النوادي والسهرات وحلبات السباق.. ثم اختار إحدى القضايا الهامة وأترافع فيها. بهذا أكون لنفسي اسماً يصبح معروفاً، ولا يهمني ما أنفقه من مال فهو سيكون عندي وفيراً. وبالطبع فإن رغبتي في العمل ليس مردها الحاجة بقدر ما أعتبرها وسيلة لممارسة دراستي والاستفادة منها.. لأن البطالة حتى مع الغنى أمر غير مستحب بالنسبة للرجال..

وعقب رولاند وهو يقضم إحدى ثمرات الكمثرى قائلاً:

– لو كنت مكانك ما فعلت غير شراء قارب فخم أقضي فيه نهاري أصطاد السمك ويخت أتنقل به من مكان إلى مكان.

وجاء الدور على بيير ليدلي برأيه فقال:

- إن المال لا يبني الرجال ولا يكون ذرة في بنائهم الفكري أو الأخلاقي. قد ينفع المال الناس البسطاء، وقد يستكينون لتأثيره المخدر، ولكن الرجل القوي يجب أن يتخذ ما لديه من مال دافعاً لمزيد من العمل، وليس مؤثراً ينحو به نحو الكسل. إن جان الآن يبدأ المهنة وهو مؤمن ضد الحاجة.. التي قد تنحرف بالإنسان من غاياته الخلقية المنشودة..

ولذا ففرصته هي أن يثبت أن معدنه نفيس وأن يقوم كأحد الأعمدة المتينة في هيكل مهنته.

ثم أردف في حماس والكل منصت لكل كلمة يقولها:

- لو كان عندي المال لبذلت كل قطرة من عرقي وكل ذرة من جهدي في خدمة المرضى.

ولكن هذا الرأي لم يعجب رولاند العجوز، فقال معقباً:

- يا بني.. إن أحسن طريقة للحياة، هي أن تحيا بسهولة وتستمع بكل ما تقدمه لنا الحياة.. إذا ولدت فقيراً، فاعمل، لا مناص لك عن هذا. أما إذا وهبك الله دخلاً محترماً، يكفل حياة هانئة.. فلم العمل والإرهاق!. من الجنون عندئذ أن يضيع المرء دقيقة واحدة من عمره في أي عمل.

وهز بيير كتفيه رافضاً رأي والده قائلاً:

- إن لنا وجهتين من النظر مختلفتين.. وفي نظري، واعتقادي، إني لا

أحترم إلا شيئين في الحياة، المعرفة، والذكاء.. ودون ذلك لا اعتبار له عندي ورأيت مدام رولاند أن تغير موضوع الحديث حتى تبعد الأب والابن عن مناقشة قد تحتدم بينهما فكل منهما متمسك بوجهة نظره، لا يروم الحيد عنها ولذا فقد قاطعتهم قائلة:

– ما رأيكم في الجريمة التي وقعت في حي بوليك والتي نشرتها الصحف؟

وفي الحال تحول مجرى حديث الجميع إلى موضوع هذه الجريمة التي استحوذت على اهتمام الرأي العام واهتمت بها معظم الصحف المحلية وقضى الكل وقتاً يتناقشون في تفصيلاتها إلى أن نظر رولاند في ساعته وصاح فيهم قائلاً:

– هيا.. أسرعوا.. لقد حان وقت الذهاب إلى مكتب مسيو كانو..

غير أن بيير نظر إلى ساعته في امتعاض وقال:

– إن الساعة لم تتجاوز الواحدة بعد.. كما إني لم أفرغ من تناول طعامي.

وتساءل الوالد:

– ألن تأتي معنا؟

وأجاب في حدة:

– لا. فليس لوجودي معكم هناك أي مبرر أو ضرورة.

وكان جان صامتاً كأن الأمر لا يعنيه. عندما كانوا يناقشون الجريمة تكلم مرة أو مرتين مدلياً برأيه بصفته محامياً يتكلم في موضع اختصاصه.. ولكنه

الآن جالس لا يتكلم وإن وشى بريق عينيه ولمعان خدوده عن سعادة غامرة تعتمل في داخله.

خرج رولاند وزوجته وابنه جان، متوجهين إلى مكتب المحامي، وعندما وجد بيير نفسه وحيداً، قرر الخروج أيضاً ليستأنف عملية البحث عن شقة مناسبة، التي كان قد بدأها في الصباح.. وبعد ما يقرب من ثلاث ساعات أخرى، ساقته الصدفة إلى شقة ممتازة لها مدخلان من شارعين رئيسيين أحدهما هو شارع بوليفا فرانسو، بها حجرتا استقبال وغرفة انتظار جدرانها من الزجاج تصلح كقاعة انتظار للمرضى وبها أيضاً غرفة طعام كبيرة تطل على البحر من الخلف.

وعندما سأل عن قيمة الإيجار وجدها ثلاثة آلاف فرنك وكان أصعب ما في الصفقة هو أن صاحب الملك كان مصراً على أن يتناول ربع قيمة الإيجار مقدماً.. الأمر الذي يعجز بيير لأنه لم يكن يملك منه في هذه اللحظة خردلة واحدة. وكان يعلم أن دخل والده يكاد يكفي مطالب الحياة، وكثيراً ما لام نفسه لأنه تأخر في بدء حياته العملية ليخفف العبء قليلاً عن كاهل والديه.. ويئس لأنه أحس بآماله في العثور على شقة جميلة تنهار بعد أن عثر على مبتغاه ولكن عجزه المالي حال دون إتمام استئجارها. ولمح له خاطر جدد في نفسه الأمل وانصرف واعداً صاحب الشقة أن يعود إليه خلال يومين على الأكثر، ومعه مقدم الإيجار المطلوب.

وكان الخاطر الذي لاح له، هو أن يلجأ إلى جان، ويطلب منه أن يقرضه قيمة ربع الإيجار، وربما نصفه أي ما يوازي ألف وخمسمائة فرنك — سيكون ديناً في عنقي، أرده خلال شهور، عندما أعمل، وتنهال علي

الإيرادات من المرضى، ولا أظن أن جان سيمانع في إقراضي هذا المبلغ. الذي يعتبر بسيطاً بالنسبة لقيمة الإرث الذي آل إليه.

كانت الساعة قد بلغت الرابعة، ولذا فقد آثر أن يتجه إلى المنتزه الرئيسي ليجلس فيه قليلاً قبل عودته إلى المنزل. وهناك، أجلس نفسه على أحد المقاعد الحجرية المتناثرة في أرجائه، وحاول ألا يشغل نفسه بالتفكير في أي شيء. ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي يجلس فيها في هذا المتنزه، فقد كان يقضي أوقاته في لوهافر، ما بين المشي في شارع الميناء، أو التطلع إلى نوافذ المحلات التجارية في شارع باريس، أو الجلوس في المتنزه، أو المقهى، أو زيارة ماروفسكو في محله الصغير.. وكان يحسب حساب كل فرنك ينفقه، كان يرغب أحياناً في استئجار عربة ليتوجه بها إلى الريف المجاور حيث ينعم نفسه بالجلوس وسط الحقول الخضراء، والأشجار الباسقة، ولكن.. أنى له بأجر العربة ليحقق له ما يريد.. ووخذه ألم جارح، لتذكره أنه — وهو ابن الثلاثين، لا يزال ينتظر أن يأخذ نقوداً من والده أو والدته كطفل صغير!

ومد عصاه التي لم تكن تفارقه، وضرب بها الأرض وقال:

– لو أن معي نقوداً!

وعاودته الرغبة في التفكير في إرث شقيقه جان، ولكنه طرد الفكرة بسرعة، مؤنباً نفسه لسماحها باجترار إحساس الغيرة الذي كان يطارده بين الحين والآخر.

وكان الأطفال من حوله يلعبون ويمرحون في ممرات المتنزه المتربة، وكان بعضهم يلعب الكرة في صخب، والبعض الآخر يبني أكواخاً من ورق

الشجر وفروعه الصغيرة، ثم لا يلبثون أن يهدموها بركلة من رجل أحدهم، وهم يتضاحكون في براءة الأطفال، وعبث الصبية، الذين لم يعرفوا بعد الإحساسات الدنيا التي تبعدهم عن بعضهم، وتجعلهم متنافرين.

ونظر بيير إلى الأطفال في حنان، واستيقظ في داخله إحساس بالوحدة.. وحن أن تكون له زوجة، وأسرة، وأبناء.. فالزوجة هي رفيقة الحياة، ومؤنسة الوحدة، ومبددة الوحشة. لم تكن هذه هي أفكار بيير في الزواج، ولكن .. من منا لا يغير رأيه في هذا الموضوع.. بين رافض له ومتحمس من أجله.. إن الحالة النفسية هي التي تشكل رأي الرجل في الزواج، أحياناً تشعره بالحنين له.. وأحياناً أخرى تدس له إحساس الامتعاض والتقزز منه.

وقاده التفكير في الزواج إلى التفكير في النساء عامة، وكانت خبرته معهن قليلة.. ذلك أن إقامته في الحي اللاتيني في باريس إبان دراسته، ومصروفه المحدود الذي كان يرسله له والده في مطلع كل شهر، لم يكونا كافيين لينساق وراء المغامرات العاطفية الصاخبة كغيره من الطلبة الموسرين.

وشده الحنين إلى المرأة.. أي امرأة..

وقام فجأة من مجلسه وقد صمم على أن يتوجه مباشرة إلى منزل مدام روزيمللي ولكنه قام فجأة جلس فجأة، لأنه أحس أنه لا يحبها. لماذا؟. ألأنها تميل إلى جان أكثر منه؟ قد يفكر بيير في هذا، أو قد لا يود الاعتراف به، ولكن الحقيقة تقول إن ميلها إلى جان له دخل كبير في رأيه فيها، وفي ذكائها، وقدرتها على اختيار الرجال، ذلك أنه وإن كان يحب أخاه فعلاً إلا أنه بينه وبين نفسه كان يعتبر نفسه أكثر ذكاء وإيجابية في الفكر، والشخصية

في شقيقه جان. إذن.. إلى أين يذهب.. أيقضي الليلة مثل سابقتها يتنقل من شارع إلى شارع بغير هدى؟

ألا توجد في الدنيا سوى مدام روزيمللي هذه؟ إنه يحس بحاجته إلى امرأة.. والرجل تعتريه أحياناً هذه النوبات من الإحساس عندما يكون متضايقاً مهموماً، فإنه يحس أن مداعبة امرأة كفيلة بإزاحة الهم عن نفسه.

وتذكر فتاة تعمل جرسونة في أحد المقاهي وكان قد سبق له التعرف عليها، وقضى معها ليلة، ثم قابلها بعد ذلك في فترات متباعدة. ونهض من مكانه، وفي رأسه أن يتوجه إلى ذلك المقهى ليتناول قدحاً من الجعة مع هذه الفتاة، ليسري عن نفسه.. لكن.. ماذا سيقول لها.. وأي حديث سيدور بينهما؟. لا يهم.. فلمسة من يدها.. يد الأنثى، كفيلة بسحب شحنة التوتر المتفاعلة في نفس الرجل.

دلف إلى المقهى، ولم يكن به إلا نفر قليل من الزبائن، تناثروا على مقاعده العديدة، ووجد فتاته جالسة في ركن قصي، وعندما رأته قفزت من مكانها، وأتت إليه مرحبة:

– كيف حالك؟

ورد عليها:

– حالتي ليست سيئة جداً.. كيف حالك أنت؟

وردت في حبور:

– أحسن.. لا نراك هنا إلا قليلاً..

– ليس عندي من الوقت الكثير. فأنا طبيب كما تعلمين.

وردت عليه قائلة:

– ومن أين لي أن أعرف، وأنت لم تخبرني من قبل. ليتني كنت أعرف ففي الأسبوع الماضي أصابتني وعكة، ولو كنت عرفت لاستشرتك.

وسألته بعد ذلك:

– ماذا تشرب؟

– بيرة.. وأنت؟

– ما دمت ستدفع، فسأتناول قدحاً أنا الأخرى معك.

وجلست قبالته على إحدى الموائد ولم يكن بركن المقهى الذي جلسوا على إحدى موائده أحد سواهما. ولذا فقد أخذت تداعبه مداعبات مكشوفة وهما يحتسيان أقداح البيرة..

وقالت له وفي نظراتها نهم إليه:

– لم لا تأتي إلى هنا كثيراً؟

ورد دون وعي:

– سأفعل.

وأردفت قائلة:

– أنا أحبك كثيراً..

ولكنه لم يرد.. وشعر بتقزز منها، ذلك، لأنها ابتذلت نفسها معه

وتلهفت عليه، وقال لنفسه:إن النساء يجب أن يظهرن في صورة المتمنعات.. يجب أن يكن بالنسبة لنا معشر الرجال، كالحلم اللذيذ.

وسألته الفتاة:

- لقد رأيتك مرة تسير من أمام المقهى، وكان معك شاب عريض المنكبين أشقر ذو لحية مسبسبة جميلة. هل هو أخوك؟

ورد في لا مبالاة قائلاً:

- نعم.

وأردفت تقول كأنما تغازل أخاه الغائب:

- إنه شاب جميل الطلعة.

ورد في امتعاض:

- أتظنين ذلك؟

- نعم.. بالإضافة إلى أنه يبدو مقبلاً على الحياة.

- إن أخي هذا شخص محظوظ. لقد هبطت عليه ثروة إيرادها السنوي عشرون ألف فرنك.

وفغرت الفتاة فاها، والتمعت عيناها في دهشة، وقالت:

- ومن ترك له هذه الثروة.. جد أم عمة؟

وتردد بيير قبل أن يجيب قائلاً:

- لا هذا ولا تلك. بل صديق قديم للعائلة

وقالت الفتاة وهي لا تكاد تصدق:

- صديق للعائلة فقط؟ إن هذا يبدو مستحيلاً. ألم يترك لك هذا الصديق أي شيء؟

ورد بيير وهو يغالب إحساساً بالمرارة:

- لا..

وصمتت الفتاة برهة، ثم ارتسمت على فمها ابتسامة ثعلبية وقالت:

- حسناً. إن أخاك لمحظوظ حقاً.. إن يجد هذا الصديق القديم للعائلة الذي يورثه كل تلك الثروة الطائلة.. ولا غرابة بالطبع في أن ملامحه لا تشبهك في شيء.

وأحس برغبة جامحة قوية في أن يصفعها بكل قوته، ولكنه قاوم رغبته وقال:

- ماذا تقصدين. بهذا القول؟

وارتسم على وجهها تعبير متبلد وقالت:

- أنا؟ لا شيء.. أعني أنه أكثر حظاً منك.

وبسرعة وبكل ما يملك من احتقار ممزوج بالغضب. أخرج من جيبه فرنكاً رماه على المنضدة وانصرف دون أن يبادلها أي كلمة.. وكانت كلماتها تطن في أذنيه كأنها دوي الطبل.

"ولا غرابة بالطبع في أن ملامحه لا تشبهك في شيء".

ماذا تقصد الملعونة بتلك الجملة! إن أفكارها لابد وأن تكون في مثل وضاعتها تماماً.. ولابد وأنها فكرت أو شكت في أن جان هو ابن مارشال!

وبمجرد أن وصل إلى هذا الاستنتاج أصابته صدمة داخلية كأن قالباً من الديناميت انفجر في داخل كيانه فزلزله بعنف.. أن تفكر هذه الفتاة أن أمه.. أمه العزيزة قد أخطأت مع مارشال.. يا لها من فكرة مجنونة، وشك حقير..

وشعر برغبة في أن يجلس إذ لم يجد في نفسه قدرة على الوقوف أو مواصلة السير ونظر أمامه، ووجد مقهى على الجانب المقابل، فغير الشارع وجلس على أول مقعد صادفه فيه، وعندما جاء النادل طلب قدحاً من الجعة وهو يحس أن صوته قد احتبس من كثرة ما أصابه من انفعال.. وأن قلبه يدق بعنف، وأن رعشة قد سرت في جسمه كله.

وفجأة تذكر ما قاله له ماروفسكو في الليلة الماضية "أن هذا لن تكون له نتائج طيبة" أيكون ماروفسكو فكر نفس تفكير هذه الفتاة.. وانتهى إلى نفس الشك؟

وأسند رأسه إلى منكبيه الموضوعتين على المائدة وركز بصره على رغوة الجعة في القدح الموضوع أمامه.. متتبعاً الفقاعات المتراكمة على سطحها.. وقال محدثاً نفسه:

– هل يمكن لأي مخلوف أن يتصور هذا ؟

ولكن الأسباب التي أثارت الشك إلى نفس الفتاة، ثم ماروفسكو، أخذت تبدو وجيهة وواضحة، بل ومقنعة في عيني بيير.

لو كان مارشال ترك ثروته لولدي صديقه الاثنين.. ما أثار الأمر شكاً أو ريبة ما دام ليس له قريب يرث ما له من بعده.. أما أن يخص أحد الولدين بثروته ويحرم الثاني منها، فإن ذلك كفيل بوضع علامات الاستفهام

على الموضوع برمته ويجعل الناس تتهامس، وتبتسم تلك الابتسامة التي تخفي وراءها أدلة الاتهام.

يا لك من غبي يا بيير.. لم لم تفكر كما فكر الناس.. لم لم تصل إلى نفس استنتاجهم بسرعة، عقب خبر الموت والوصية، والإرث! بل لم لم يدر في خلد والدك مسيو رولاند نفسه هذا التفكير! ولو لم تخمن والدتك بالسبب الحقيقي الخفي، الذي ترك من أجله مارشال.. صديق العائلة الأعزب.. ما له كله لشقيقك جان! لا.. لم يشك أي منهم في الموضوع.. وتركز جل اهتمامهم على الثروة، وأهملوا ما يمكن أن يثار حول الثروة من أقاويل. أن آل رولاند.. الزوج والزوجة أناس مهذبون.. لا يعكر تفكيرهم أي خاطر سقيم!

وماذا عن المعارف والجيران؟ ألن يذهب بهم الشك مداه، ويتقولون بينهم وبين أنفسهم على والداه.. ويحتقرون أمه؟ وملاحظة فتاة المقهى عندما قالت: إنهما غير متشابهين، وأن جان أشقر، بينما تميل بشرة بيير إلى السمرة.. وهما غي متشابهين لا في الشكل ولا في التفكير ولا في العادات.. ألن يثير هذا تساؤل الناس، وأقاويلهم؟ ألن يتساءلوا عندما يذكر أحدهما ابني رولاند المسكين بقولهم "من منهم تقصد؟ الابن الحقيقي، أم الابن الزائف؟

ونهض من مكانه وهو مصمم على مقابلة جان في الحال ليحذره.. وليطلعه على الخطر المحدق الذي يتهدد شرف العائلة.. وشرف والدتهم على الأخص.

ولكن.. ماذا يستطيع جان أن يفعل؟

إن أبسط وأسهل ما يمكن أني عمله، هو أن يتنازل عن قبول الوصية التي تؤول في هذه الحال إلى ملاجئ الأطفال، وأن يزعم للمعارف

والأصدقاء – كتبرير لرفض الإرث – أن الوصية تتضمن شروطاً كانت تغل يد جان عن الميراث، وتجعله حارساً على التركة وليس وريثاً لها.

وبينما هو في طريقه إلى المنزل صمم على أن يحادث أخاه على انفراد حتى يتجنب مناقشة هذا الموضوع ذي الحساسية الشديدة أمام كلا الوالدين. ولكنه عندما دخل المنزل سمع صخباً مختلطاً بأصوات ضحكات عالية مجلجلة ينبعث من حجرة الجلوس، فقد كان هناك علاوة على آل رولاند مدام روزيمللي، وكذلك كابتن بواسير، وكانا قد دعيا إلى العشاء احتفالاً بتلك المناسبة المفرطة في السعادة.

ولم يكونوا قد تناولوا العشاء بعد، بل كانت تدار بينهم كئوس الفرموت، والابسنت لتفتح شهيتهم، وكان البشر يطفح من وجوههم جميعاً – خصوصاً كابتن بواسير وهو رجل كروي الشكل، طاف بحار الدنيا كلها، واستمتع بكل ما يمكن أن تقدمه من متاع، وكان يضحك بصوت كأنه رعد منبعث من عاصفة غضبى. وقد انتحى جانباً مع مسيو رولاند، يتقارعان الشراب والذكريات، بينما انشغل جان في ملئ كأسين أحدهما لوالدته والآخر لمدام روزيمللي.

اعتذرت مدام روزيمللي عن شرب كأس ثانية، ولكن الكابتن العجوز الذي كان يعرف زوجها القبطان الراحل حق المعرفة صاح فيها منسجماً قائلاً:

– هيا يا مدام روزيمللي. لا ترفضي كأس الفرموت أبداً.. ولا ضرر البتة من شرب أكثر من كأس من هذا الشراب الساحر. انظري إلي! فمنذ اعتزالي العمل في البحار، وأنا متعود على شرب ما يقرب من زجاجة

قبل العشاء. وأحياناً أضيف بعضاً منها إلى قهوة بعد العشاء وهذا يعني أن المد عندي مرتفع. طيلة الليلة!

ثم قهقه ضاحكاً، وشاركه مسيو رولاند ضحكه.

وأردف بواسير يقول:

– ولكن.. لا تظني إني سكير.. فأنا لم أشرب في حياتي حتى مرحلة فقدان الاتزان.. فإن هذا يدمر الإنسان، ويفقده احترامه لنفسه، واحترام الآخرين له.

وضحك رولاند من كل أعماقه عقب كلام صديقه البحار العجوز، الذي كان نصف اعتزازه به مرجعه خبرة الأخير بالبحر والملاحة، وتوردت خدوده، وتألق بريق عينه واهتز كرشه، الذي كان الشيء الوحيد المتميز في تكوينه الجسمي، وهو كرش أوشك أن يبتلع كل ما عداه من أعضاء الجسم ليبقى هو الرمز والإشارة إلى وجود مسيو رولاند العظيم! أما صديقه بواسير، فبالرغم من أنه قصير سمين، إلا أنه كان مثل البيضة تماماً.. كتلة واحدة لا بروز في احد أجزائها بحيث تتميز عن الأخرى وكان بالإضافة إلى هذا، وبالرغم من سمنته، قوي البنيان، متين العضلات أثمرت حياة البحر في بث الصحة في جسمه.

كانت الكأس الأولى في يد مدام رولاند، ولم تكن قد فرغت من شربها بعد، وكان عينها مثبتة في فخر واعتزاز على ابنها جان الذي كان يبدو سعيداً.. في منتهى السعادة، ولم لا، والوصية قد قبلت، واتخذ كل إجراءات إعلانها عند مسيو كانو منذ وقت قليل، وأصبح بمقتضاها مالكاً لثروة ضخمة تدر عليه عشرين ألف فرنك كل سنة.. أعلنت الخادمة جوزفين أن

العشاء معد.. ودعتهم إلى غرفة الطعام. وهم مسيو رولاند أن يضع يده في يد مدام روزيمللي – إمعاناً في تكريمها – لاصطحابها إلى غرفة الطعام، غير أن زوجته قطعت عليه ما يريد قائلة:

– إن جان هو نجم الليلة فلندع له كل شيء الآن!

التأم عقد الجميع حول مائدة الطعام التي كانت مرصعة بالعديد من الأصناف الفاخرة بما يتلاءم مع تلك المناسبة السعيدة. وجلس جان في مكان الصدارة بعد أن تخلى له والده عنه، ووضعت أمامه على المائدة كعكة ضخمة مكونة من أربعة أدوار ومرصعة بقطع الفاكهة الشهية، وأصناف الشكولاتة النادرة.

وعلق بيير وهو يتخذ مكانه على المائدة قائلاً:

– نحن اليوم نحتفل بتنصيب جان الغني على عرش الأسرة!

ومع مضغ الطعام، انشغل الجميع – ما عدا بيير في جملة أحاديث ذات مواضيع متفرقة.. فبينما انهمك كابتن بواسير في وصف حفل عشاء دعي إليه ذات مرة في ميناء سانت دومنجو مع قبطان زنجي كان رولاند يستمع إليه باهتمام، محاولاً هو الآخر أن يقص حادثة عشاء دعي إليها مع بعض الأصدقاء، ولزم الفراش بعدها أسبوعين تقريباً.. أما جان ووالدته ومدام روزيمللي فقد كانوا في شاغل عن حديث الرجلين يرتبون فيما بينهم خطة رحلة إلى سانت جوان حيث يقضون هناك وقتاً جميلاً.

كان بيير هو الوحيد الذي لم ينبس ببنت شفه.. وكان يؤنب نفسه على حضوره إلى المنزل في تلك الساعة، وعلى عدم تناوله العشاء في أي مكان

بعيد، حيث يكون – بمفرده بعيداً عن الضحك والحديث التافه الذي يجري أمامه الآن والذي يفقده سيطرته على أعصابه.

وكان يفكر في حديثه الذي انتوى أن يتحدث به مع أخيه وكيف يمكن لجان أن يتنازل عن الثروة.. التي يبدو الآن بها جد سعيد.. سيكون من الصعب أن يقبل جان فكرة التنازل عن الثروة.. ولكن لا مفر من هذا – في رأي بيير، ويجب ألا يفسح للتردد باباً.. فسمعة الأم أصبحت في خطر يلزم الدفاع عنها. وبينما كانت هذه الفكرة مستحوذة على عقل بيير. كان بواسير لا يزال منهمكاً في قصر نوادره عن الموانئ البعيدة التي زارها، وعن تجاربه المتعددة في صيد السمك، وهو الموضوع الأثير لدى مسيو رولاند. وتحدث عن أنواع السمك المختلفة.. والكل منصت إليه يشاركونه الضحك إذا ضحك، وينصتون عندما يتكلم.. والسعادة تغمر قلوبهم جميعاً.. وتوالت أطباق الطعام على المائدة، سمك، دجاج مشوي، لحم ساخن، أنواع مختلفة من السلاطة وأصناف متعددة من الخضروات، وكانت مدام روزيمللي قد اصطحبت خدامتها لتساعد جوزفين في هذه المناسبة الغير عادية وارتفعت الأيدي بكؤوس النبيذ لتفرغها في الأفواه النشطة وجاء دور الشمبانيا، وحيا الجميع صوت الزجاجة التقليدي عندما تزاح منها السدادة وكور رولاند فمه ليحدث صوتاً مماثلاً بين ضحك الحاضرين، وهو يقول:

– يا له من صوت شجي.. أن فرقعة زجاجة الشمبانيا أحسن عندي من صوت طلقة مسدس.

ورد بيير – الذي زاد قلقه وتوتره الداخلي – قائلاً:

– على كل حال فكأس الشمبانيا أكثر خطراً عليك من طلقة المسدس.

ووضع رولاند كأسه دون أن يكمل شربه، ونظر إلى ابنه الطبيب في دهشة ممزوجة بالامتعاض وهو يقول:

– ما هو مكمن الخطر يا بني؟

وكان رولاند شخصاً مروضاً كثير الشكوى من الكبد، والأمعاء.. وغيرها من الأعضاء غير المنظورة.

وأجاب بيير في لهجة تقريرية كأنه يخاطب مريضاً بعد إتمام الكشف عليه:

– لأن طلقة المسدس قد تخطئك ولا تصيبك. أما الكأس فإنها تنزل إلى المعدة مباشرة وبدون أي احتمال في أن تخطئ طريقها.

وتساءل رولاند قائلاً:

– وماذا بعد ذلك؟

– إنها تحرق معدتك! وتلهب الغشاء البريتوني، وتهيج الجهاز العصبي وتؤثر على الأغشية التي تفرز الأنزيمات.

وارتسمت على وجه رولاند تعابير قلقة، ونظر إلى ابنه كمن يريد أن يكشف عما إذا كان يجد أم يمزح، وتدخل بواسير في الحديث مهوناً على رولاند وهو يقول:

– يا لهؤلاء الأطباء.. إنهم يبالغون ويهولون في كل شيء.. لا تأكل، لا تشرب، لا تحب، لا ترقص.. إن هذه القيود هي الخطر الداهم، وليس المرض.. اسمع يا سيدي الطبيب، لقد فعلت خلال عمري كل ما حلا لي.. دون أي قيد.. وانظر إلى صحتي.. إنها في قوة الحديد.

ولكن بيير رد في لهجة هادئة:

– أريد أن أوضح لك يا سيدي الكابتن أن قدرتك الصحية أكبر من قدرة والدي، هذا إلى جانب أن الناس اعتادوا الاستهانة بالصحة إلى أن يحل المرض.. ثم تراهم يعضون أصابع الندم على ما فات، ولا غرابة في أن انبه والدي إلى الخطر عندما أراه يفعل ما يسببه! وإلا خنت واجب البنوة نحوه.

وتضايقت مدام رولاند من تغيير جو الجلسة إلى تلك المناقشة الجادة الغير مبهجة وقالت موجهة الحديث إلى بيير:

– ماذا دهاك يا بيير. إن كأساً لن تذهب بوالدك إلى القبر. فكر في مناسبتنا السعيدة ولا تفسد ليلتنا بتعليماتك الطبية هذه.

وهز بيير كتفه كأنما يلقي المسئولية عن كاهله وقال:

– يستطيع والدي أن يفعل ما يروق له بالطبع، لقد أنذرته وكفى.

ولكن رولاند لم يعاود الشرب، بل أخذ ينظر إلى الكأس المترعة بالشمبانيا، ثم يهز رأسه في أسف، ثم ينظر إلى ابنه في استنجاد.. كأن صراعاً نشب داخل نفسه، وقال أخيراً لبيير:

– هل تظن حقيقة أن كأساً أخرى قد تضربي؟

وشعر بيير بالألم وأحس أنه تسبب بقوله هذا في وأد إحساس السعادة الذي كان يكتنف والده، وأراد أن يخفف عنه فقال له:

– حسن جداً يا والدي، تستطيع أن تشرب كأساً أخرى.. ولكن لا تفرط في الشراب ولا تتعود عليه.

ورفع رولاند كأسه إلى شفتيه، ولكنه لم يكن متأكداً تماماً من أنه لن يمرض إذا شربه، ونظر إليه في حسرة وأوشك أن يعيده إلى مكانه، ولكنه كان كالطفل الذي يمنع عنه شيء هو في حاجة فعلية إليه، ولذا فقد قربه من أنفه كأنما يشمه، ثم رشف رشفة صغيرة. ثم رشفة أخرى.. وأخيراً عب من الكأس حتى أتى على آخره. ونظر بيير إلى مدام روزيمللي التي كانت تجلس قبالته وفوجئ بها وهي مسلطة عينيها الدعجاوين نحوه، وأحس بما يختلج في نفسها من معنى.. أحس كأنها تود أن تقول له:

كفى تظاهراً يا بيير.. قل أنك غيور من أخيك.. قل هذا ولا تتعب نفسك وتتعب غيرك معك..

وخفض ناظريه وركزهما في طبق الطعام.. ولم يكن يحس بأية رغبة فيه. كان يود أن ينهض ليبتعد عن هؤلاء القوم، بحديثهم، وضحكاتهم وتعليقاتهم.

وكان رولاند قد نسى في غمرة نشوته من الكأس التي شربها تحذير ابنه من خطر مواصلة الشرب، ورمق بعينه على طرف المائدة –على بعد غير كبير منه– زجاجة الشمبانيا وهي تقف شامخة على المائدة كأنما تدعوه إليها وود لو يفرغها كلها في جوفه مرة واحدة، ولكنه خشى أن يقرعه ابنه مرة ثانية، وصار يبحث عن طريقة يشرب بها دون أن يلحظه بيير وهداه تفكيره إلى حيلة في غاية البساطة، فقد أمسك الزجاجة وقربها من كأس بيير الذي كان فارغاً فملأه له، ثم دار على بقية الكؤوس ومن بينها كأسه بالطبع، متعمداً أن يتشاغل بالحديث وهو يصب الكؤوس، حتى يمكن أن يعتذر بأنه ملأ كأسه سهواً لو لاحظ بيير ذلك.

وحمد الله إذ نجحت الحيلة ولم يلحظ أحد ما فعل. ثم رفع الكأس بكل ثقة وأفرغه في جوفه دفعة واحدة.

أمسك بيير كأسه وشربه دون تفكير، وأنسته النشوة التي شاعت في نفسه بعد الكأس موقفه من الشراب، فأتبعها بكأس أخرى، وشعر بخدر يسري في أعصابه، وبزوال التوتر الذي أهاج نفسه من قبل، وأحس بتيار من السعادة يكتنفه ويضعف في نفسه التصميم السابق للحديث إلى جان بخصوص الميراث والرغبة في التنازل عنه، ولم ذلك يعني أنه ألغى الفكرة، ولكنه أجلها حتى لا يفسد النشوة التي حلت به.

قام كابتن بواسير من مكانه رافعاً كأسه ليقترح شرب نخب قدم له قائلاً:

– سيداتي وسادتي.. يسعدنا أننا اجتمعنا الليلة لنحتفل بمناسبة سعيدة حلت بأحد أصدقائنا. وقديماً قال الناس أن الحظ أعمى، ولكني أقول أنه فقط قصير النظر لأنه تأخر بعض الشيء وهو في طريقة إلى ابن صديقنا العزيز مسيو رولاند.

وصفقت مدام روزيمللي وصاحت مدام رولاند قائلة "برافو" ونهض مسيو رولاند ليرد التحية قائلاً:

– أشكرك يا كابتن بالأصالة عن نفسي ونيابة عن ابني جان، ولن أنسى أبداً مقدار سعادتك بهذه المناسبة، ولنشرب الآن نخب تحقيق كل آمالك.

واغرورقت عينا رولاند بالدموع ولم يستطع مواصلة الحديث فجلس، ونهض جان الذي كان يضحك وقال:

– إن واجب الشكر يقع على الأصدقاء المخلصين الذين احتفلوا معنا

الليلة، وشاركونا سعادتنا "كان ينظر إلى مدام روزيمللي وهو يقول هذه الجملة"، والذين قدموا لي دليلاً جديداً على محبتهم. ولكن الكلمات لا تسعفني لأرد لهم جميلهم الذي لن أنساه طيلة حياتي.

وتأثرت مدام رولاند بكلمات جان وقال له مشجعة:

– أحسنت بما قلت يا ولدي.

وصاح كابتن بواسير

– هيا يا مدام روزيمللي.. تحدثي بالنيابة عن الجنس اللطيف.

ورفعت مدام روزيمللي كأسها، وبصوت دافئ ونبرة شابها خيط من الحزن قالت:

– إني أشرب نخبي في ذكرى المرحوم مسيو مارشال.

وسادت لحظة من الصمت كأنها للحظات حداد على مارشال، وأخيراً قال بواسير:

– أرأيتم أن النساء أقدر منا على إبراز العواطف الطيبة؟

ثم التفت إلى رولاند وسأله:

– على فكرة يا مسيو رولاند.. هل كان مارشال هذا صديقاً عزيزاً لك؟

ورد رولاند وقد أثرت الخمر التي شربها في قدرته على ضبط نفسه:

– صديق؟ قل إنه كان أخاً.. كان من ذلك النوع من الرجال الذين لا يصادفك غير مرة واحدة طيلة حياتك. كان يزورنا كل ليلة. كان يدعونا إلى المسرح كان صديقاً حقاً..

ثم التفت إلى زوجته وسألها:

– أليس كذلك يا لويز؟

وأجابت الزوجة ببساطة:

– نعم. كان نعم الصديق.

ونظر بيير إلى والديه.. ورفع كأساً أخرى وشربها.

ولا يدري كيف انقضت الليلة.. فقد شربوا وضحكوا، وغنوا، ولم يستيقظ في صباح اليوم التالي إلا وقد بلغت الساعة التاسعة والنصف تماماً.

كان للشمبانيا والنوم العميق، أثرهما في نفس بيير لأنه عندما استيقظ في الصباح أحس براحة كان يفتقدها بالأمس، وشعر بأن إحساس التوتر قد زال عنه، وبينما كان يرتدي ملابسه كان يفكر في الأسباب التي دفعته بالأمس إلى تلك الحال محاولاً أن يصل إلى الأسباب الظاهرية، والأخرى الخفية الشخصية.

حقاً لقد أثاره قول فتاة المقهى عندما أحسن من كلامها شكاً شيطانياً، وهو يخبرها أن شقيقه من دونه – قد ورث ثروة طائلة تركها له أحد أصدقاء العائلة عندما توفي دون وريث من أقاربه.

ولكن.. أليس من المعروف، أن مثل تلك الفتاة السوقية تشك دائماً وتتقول باستمرار على السيدات الشريفات أمثال والدته مدام رولاند، وتلقي الشك عليهن دون ظل من حقيقة! لا يسمعهن المرء غالباً – هؤلاء الفتيات بما جلبن عليه من ضعة – دون أن يطلقن الشائعات حول سيدات لا يمكن للشك أن يتطرق إليهن؟ إن الفتاة منهن ما تكاد تسمعك تمتدح سيدة

فضلى حتى تفاجئك بقولها:

يا لهؤلاء النسوة المتزوجات.. إن لهن عشاقاً أكثر مما لنا نحن فتيات السوق.. يتسترن دائماً خلف بيوت الزوجية، ثم يذبحن الشرف الذي طالما يتسترن به" كأنما يعبرن عن رغبة باطنية في هدم كل ما هو فاضل، وكل ما هو شريف!

لو كان هذا الشك قد ألقى على سمعة والدته في ظروف غير تلك، لما كفاه إطاحة رقبة من يتجرأ عليها بأي قول. لكن.. الغيرة.. ذلك الإحساس الدفين.. هو الذي أوغر صدره وجعله يقبل هذه القضية ويعتبرها موضع نقاش بينه وبين نفسه. كان في باطنه وحش يود أن يدمر أخاه جان بأي وسيلة.. وكان يصارع هذا الإحساس، ويود القضاء عليه.. لكن من منا استطاع دائماً أن يتغلب على كل إحساساته الشريرة!

ثم.. ليفكر قليلاً فيما قاله ماروفسكو، وما قالته فتاة المقهى.. هل كان في هذا القول معنى مباشر مثلما ذهب إليه؟ أم أن خياله هو الذي أوهمه أنهما إنما إلى هذا يقصدان؟ ربما كان تفكيره المنبعث عن ذاته الباطنية هو الذي أوحى إليه بكل ما فهم، ثم جسده، ثم تعذب به..

لقد قالوا كلاماً يحتمل أكثر من معنى، ولكن علقه الباطن تلقف هذا القول في لهفة لأنه يغذي إحساساته الدفينة الغارقة في أعماق نفسه، إحساسه بكره أخيه وبغيرته منه.. يا لقلبك يا بيير.. إن فيه سراديب مجهولة حتى لك.. فيها مشاعر رهيبة لم تستطع أنت كشف كنهها.. وها هي ذي تجد متنفساً للظهور.. وهكذا اتخذ بيير يلوم نفسه، ويحلل مشاعره ويفند

أفكاره.. كأنه أمام قسيس يدلي له بالاعتراف.

وقاده تفكيره إلى ليلة الأمس أيضاً. لقد وقفت مدام روزيمللي لتشرب نخب الراحل مارشال. ومدام روزيمللي امرأة على قدر من الذكاء، ولو كان لديها أدنى شك في سلوك أمه، أو في الباعث الذي من اجله ترك مارشال ثروته لأخيه ربما – لذكائها، كانت قد امتنعت عن التعبير عن حزنها على مارشال، أو شرب نخب ذكراه خوفاً من أن يستشف أحد ما بين كلماتها من تعريض.

إذن.. فمدام روزيمللي لم تجد غرابة في الموقف، وفي الوصية، وفي الثروة وقول ماروفسكو وفتاة المقهى لم يحمل اتهاماً صريحاً لشرف العائلة.

عند هذا الحد من الاستنتاج ومحاولة منطقة الأمور، انزاح كل شك في نفس بيير وهدأت نفسه، وتخلص من كل ما يمكن أن يشوب فرحته بالثروة التي آلت إلى أخيه وكبر في نفسه حبه لوالدته وود لو كانت أمامه في تلك اللحظة حتى ينهال عليها تقبيلاً. وأحس بيير بسعادة غامرة نابعة من النفس، وقرر بينه وبين نفسه ألا يسيء إلى أحد، وأن يكون محبوباً من الجميع وخصوصاً والده الذي طالما أرهقه وسبب له الكثير من المضايقات.

وفي موعد الغداء اجتهد ألا يحضر متأخراً، ولاحظ الجميع أنه يحاول أن يلقي ظلاً خفياً بمداعباته، وضحكاته، ومودته مع والديه، وشقيقه جان.

وقالت أمه في سرور:

– إنك لا تدرك يا عزيزي بيير لم أنت لطيف ومسل عندما تود أن تكون كذلك!

وانطلق بيير يطلق نكاته، وتعليقاته، وسخريته من بعض أصدقاء العائلة

بطريقة هزلية كانوا يضجون بالضحك منها، وله. وكان كابتن بواسير هو كبش الفداء، والمادة الغزيرة لسخرية بيير، وكذلك مدام روزيمللي وإن لم يركز عليها كثيراً ذلك أنه لم يرد أن يضايق شقيقه جان لعلمه أن أية محاولة للهزء بها إنما تعتبر طعنة في قلب جان المحب الغيور!

وبعد الغداء، قدمت القهوة وسأل بيير والده:

– هل ستخرج للصيد أو النزهة اليوم يا والدي؟

وأجاب رولاند:

– لا يا ولدي.

وعاود بيير السؤال:

– هل أستطيع أن أتنزه بالقارب قليلاً. ومعي "بابا جريس" العجوز؟

وأجاب الوالد بسرعة:

– بكل سرور يا ولدي.

وانطلق بيير تجاه الميناء، واشترى لنفسه سيجاراً ضخماً من أول محل تبغ صادفه، وكان البحار العجوز مستلقياً كعادته في القارب المربوط في مرساه، حتى يكون مستعداً لو عن لأحد من أفراد العائلة التنزه به إذا لم تكن هناك رحلات صيد في الصباح.

وانتبه العجوز عند قدوم بيير وظن أنه مقدمة لموكب العائلة، فقال له وهو يقفز متسائلاً:

– أي وجهة تريد يا سيد؟

وقال بيير:

– اخرج إلى عرض البحر أولاً.. وسيحدد اتجاه الرياح مسارنا.

وبسرعة فرد "بابا جريس" شراع القارب، ورفع الخطاف، وفك السلسلة التي تشده إلى المرسى، وما هي إلا دقائق حتى كان القارب يتهادى ببطء فوق المياه متجهاً إلى عرض البحر.

جلس بيير بجوار دفة القارب وسيجاره الضخم بين شفتيه، واسترخى بكل جسمه، ماداً ساقيه إلى الأمام.. ولفحات من نسيم البحر تلفح وجهه، وتداعب خصلات شعره فإذا بالنشاط يسري في كيانه ويحس بالراحة والهدوء.

استمرت تلك الرحلة البحرية ما يقرب من الثلاث ساعات. وكان بيير وهو في جلسته فوق سطح القارب يهتز جسمه كلما اصطدم القارب بموجة من موجات البحر، وكان يفكر في مستقبله.. الذي قدر له أن يكون مشرقاً مزدهراً.. سوف يطلب غداً من شقيقه جان أن يقرضه ألف وخمسمائة فرنك، كيما يستطيع دفع إيجار الشقة التي عثر عليها بالأمس في شارع بوليفار فرانسو، حتى يبدأ حياته العملية. بأسرع ما يمكن.

الفصل الرابع



عندما حان وقت العشاء، كان بيير مستلقياً على سريره في غرفته ولما سمع نداء جوزفين عليه ليلحق بالأسرة في غرفة الطعام، نزل بسرعة، وما أن ظهر على باب الغرفة حتى سمع والدته تخاطب جان قائلة:

– إن الشرفة مدهشة يا جان. سوف نضع لك فيها بعض الأصص المزروعة بالورود.. لكن.. دع هذا الأمر لي وسترى.. آه يا جان.. كم ستكون رائعة عندما تقيم إحدى الحفلات هناك؟

وتدخل بيير في الحديث قائلاً:

– أخبروني عم تتحدثون حتى أشارك برأيي.

وردت الأم بسرعة والكلمات تتلاحق من فمها في سعادة:

– لقد استأجرت شقة ممتازة لشقيقك جان.. تطل على شارعين رئيسيين آه لو رأيتها يا بيير.. سوف تعجبك حقاً.غرفتان للاستقبال وغرفة أخرى للنوم ورابعة للطعام. بالإضافة إلى شرفة متسعة تطل على البحر. أنها شقة مثالية تصلح لشاب أعزب غني مثل جان.

وانقبض قلب بيير وهو يسمع هذا الوصف. وأحس بطوفان من الغضب يجتاح كيانه وسأل:

– وأين تلك الشقة؟

وردت الأم، وهي لا تزال غارقة في أحلام الشقة، وما تتخيله لها من أثاث مناسب.

– في بوليفار فرانسو

ولم يعد لديه أدنى شك في أنها نفس الشقة التي اختارها لنفسه.. واجتاحه إحساس بالثورة وود لو يصيح فيهم قائلاً: "إن هذا فوق احتمالي.. ألا يوجد لديكم غير جان لتهتموا به، وبسعادته إلى هذا الحد.. ك شيء له.. وأنا.. لا شيء!" وتهاوى على أحد المقاعد بينما استمرت أمه – التي لم تلحظ ما بداخله من ثورة – تقول وفي عينيها بريق ينضح بالسعادة.

– أتعرف بكم استأجرتها يا بيير؟ بألفين وثمانمائة فرنك لا غير.. كان صاحبها متمسكاً بثلاثة آلاف فرنك ولكني استطعت أن أحصل على هذا التخفيض في مقابل جعل مدة العقد ثلاث سنوات. ستكون شقة مثالية لأخيك يا بيير، ولسوف يبدأ فيها مستقبله كمحام.. إنه أصبح غنياً حقاً، ولكن لا بأس له من العمل كي يسلي وقته على الأقل. والشقة الفاخرة التي سيجعل منها مكتباً له سوف تجذب العملاء بالتأكيد، وتؤثر عليهم، وتدخل في نفوسهم الثقة بمحاميهم الشاب.. كما أنها ستوحي إليهم بعدالة الأتعاب الكبيرة التي سيتقاضاها منهم في مقابل استشارته القانونية.

وصمتت برهة ثم قالت مواصلة حديثها الذي كان موجهاً إلى بيير في معظمه منذ أن دخل الغرفة:

– يجب أن نبحث لك أنت أيضاً يا بيير على شقة لتتخذها عيادة

لمرضاك المنتظرين.. طبيعي أنها لن تكون في مثل فخامة شقة جان.. لأنك لست على مثل غناه.. لكن، سنحاول بقدر الإمكان أن نختار لك شقة لطيفة.

ولكن تلك المقارنة بينه وبين جان ضايقته فقال في لهجة حرص على أن تشوبها رنة كبرياء:

– إني سأشق طريقي بمفردي وبعرقي وجهدي وعلمي.

وأردفت أمه مصممة على نفس فكرتها السابقة:

– نعم.. ولكن إذا كان لك شقة خاصة، فإن ذلك سيكون خير معين لك في عملك!

وابتدأت الأسرة في تناول العشاء الذي دخلت به جوزفين وران على غرفة الطعام سكون مطبق: لم يكن يشذ عنه سوى صوت ارتطام المعالق بالأطباق. وبعد دقائق تبلغ العشرة تقريباً. كسر بيير حدة هذا الصمت عندما سأل والده فجأة:

– كيف تعرفت بمارشال هذا يا والدي؟

وبالرغم من مفاجأة السؤال، إلا أن رولاند رفع رأسه قليلاً كأنه يتذكر بدء معرفته بصديقه وقال:

– آه. حسناً.. لا أكاد أتذكر بالضبط، فقد انقضى على ذلك وقت طويل. لكن.. انتظر، لقد تذكرت الآن. لقد قابلته والدتك في محلنا في باريس عندما كنت أشتغل بتجارة المجوهرات.. أليس كذلك يا بيير؟

ولويز هذا هو الاسم الأثير لدى مسيو رولاند، ينادي به زوجته في لحظات الصفاء، وأومأت الأم برأسها مؤمنة على كلام زوجها الذي واصل الحديث قائلاً:

– كان قد أتى إلى المحل لشراء قطعة من الحلي.. ثم كثر تردده على المحل بعد ذلك.. أي أنه كان عميلاً لنا، قبل أن يصبح من أصدقائنا المقربين.

وسادت دقائق أخرى من الصمت، كان بيير في أثناءها يحرك ملعقته في طبق الفاصوليا الموضوع أمامه، كأنه يعد حباته دون أن يتناول منه شيئاً، ذلك أن الأخبار السيئة التي سمعها قبل أن يجلس على المنضدة قد أفقدته كل شهيته تماماً.

وتساءل بيير بعد ذلك:

– هل تذكر يا والدي بالتقريب السنة التي التقيتم فيها والتي بدأت معرفتكم به؟

وحاول رولاند أن يتذكر، ولما لم تسعفه ذاكرته لجأ إلى زوجته قائلاً:

– لابد أنك تتذكرين تلك السنة جيداً يا لويز.. فقدرتك على التذكر مدهشة.

وأجابت الأم بسرعة قائلة:

– حدث ذلك عندما كان بيير في الثالثة من عمره.. أي قبل مولد جان بعامين تقريباً. أنا متأكدة جداً من هذا التاريخ. ذلك أن بيير وهو في

الثالثة من عمره، أصابته حمى خبيثة.. وقد ساعدنا مارشال كثيراً في هذا الظرف العصيب.

وكان كلام الأم مفتاحاً لذكريات رولاند، فانطلق مكملاً ما بدأته زوجته:

– هذا حقيقي يا بيير.. حقيقي جداً. لقد تذكرت الآن. كان مارشال رائعاً في صداقته.. فوالدتك كانت متعبة مرهقة أنهكها طول مرضك وكنت أنا مشغولاً في عملي بالمحل، وكان مارشال هو الذي يذهب إلى الصيدلية لإحضار الدواء الخاص بك. وأذكر أنه عندما تحسنت صحتك كان أكثر سعادة منا.. وكان يقبلك كثيراً تعبيراً عن فرحته لشفائك. لقد ساعدت هذه الظروف على تقوية روابط الصداقة بيننا.

وفجأة خطرت لبيير فكرة سرت إلى عقله بسرعة كطلقة المسدس التي تخترق الجسم ثم تسير مزغردة داخل ثنايا اللحم تهتك لها مساراً دموياً، ثم تستقر في النهاية عندما تضعف قوة الدفع التي أطلقتها. أن مارشال عرف بيير قبل جان.. وكان مهتماً به في طفولته.. وكان يقبله كثيراً. وكان بيير هو السبب في تقوية أواصر الصداقة بينه وبين والدته.. لماذا إذن ترك كل ثروته لشقيقه جان، ولم يترك أي شيء له!

ولم يرد بيير أن يوجه المزيد من الأسئلة. بل غرق مرة أخرى في الصمت.. ولم يفكر في شيء.. وإن كان قد داخله الغم مما سمع.. واخترق باطنه ما سمع ليرسب في أعماقه.. ليؤرقه في المستقبل، وليكون بذرة ينبت منها الشر فيما يقبل من أيام.

انتهى بيير من تناول عشاءه، ثم أحس برغبته في الخروج من المنزل فغادره في التو متعللاً بارتباطه بموعد يود اللحاق به.

وكان الضباب كثيفاً في تلك الليلة لدرجة تصعب معها الرؤية على بعد كبير، وخلت الشوارع من الكثير من المارة، وتبلد الهواء الذي كان محملاً بكمية كبيرة من الرطوبة اللزجة وأحس بيير بالضيق، فقد كان يروم عندما غادر المنزل إلى أن يتمشى قليلاً في جو تمنى أن يكون منعشاً، ولكن ها هي ذي آماله — حتى في حالة الطقس — تنهار. ولذا فقد رأى أن يتوجه إلى محل ماروفسكو ليجلس معه قليلاً.

وعندما دلف إلى المحل الصغير، كان المصباح الغازي مضاء كالعادة، وتحته جلس ماروفسكو يغالب النعاس بصعوبة، وما أن رأى بيير الذي كان يحبه في إخلاص وبلا سبب، حتى قام من جلسته الكسولة، وحياه، وأجلسه على أحد المقاعد. ثم توجه إلى أحد الدواليب حيث أخرج زجاجة وكأسين وضعهما أمام بيير وصب فيهما من شراب ماروفسكو العجيب.

سأله بيير مازحاً:

– ماذا جرى لشراب ماروفسكو؟

وأجاب الرجل وفي عينيه فرحة طفل صغير:

– آه.. كل نجاح يا دكتور بيير. اتفقت مع أشهر مقاهي المدينة على تقديم شراب ماروفسكو لزبائنهم.. وكذلك رضي المسئولون في الفنار والميناء على أن يعلنوا عن المشروب الجديد بين ركاب السفن العديدة في مقابل أن أبيع لرجال الميناء ما يحتاجونه من دواء بثمن زهيد.

وهنأه بيير على ذلك النجاح الذي لم يكن يتوقعه وبعد لحظة صمت سأل ماروفسكو بيير قائلاً:

– هل قبل أخوك الوصية والثروة..؟

ورد بيير بالإيجاب.. ثم عقب ماروفسكو ذلك بعدة أسئلة عامة حول الميراث، وقيمته وما يدره من دخل.. ثم صمت مرة ثانية، ولكن حواس بيير كانت قد تيقظت تماماً.. وخيل إليه أنه يستطيع أن يسمع أفكار ماروفسكو حتى في صمته، وفي نظراته التي كان يحاول ألا يلتقيا بنظرات بيير، وفي صوته المتردد وهو يسأل عن جان، والثروة، وفي الأسئلة الأخرى التي أحس بيير أنه يريد أن يوجهها وأنه لولا خشيته من إيلامه لأطلقها كالسهام الجارحة.. هل لا يزال عند الرجل العجوز أدنى شك في سر ترك الثروة لجان؟ أن بيير يستطيع أن يلمس ما يحسه ماروفسكو وأن لم يقله، "لا تجعل أخاك يقبل هذه الثروة مطلقاً".

- إنها ستجر العار على والدتك.. ولكن ماروفسكو لم يجرؤ بالطبع على أن يقول تلك الكلمات..

- وأنت يا بيير.. ألم يراودك نفس الإحساس؟ ألم يداخلك نفس الشك؟ لا مفر من أن تعترف! فالأمور واضحة أمامك تماماً.. لقد كابدت طوال الليالي الماضية لتوئد الحقيقة التي لا مهرب منها. ولكن.. أنى لك من مهرب وكل دقيقة تنقضي تضيف جديداً إلى أدلة الاتهام الموجهة إلى والدتك؟

وعاودته الرغبة في أن يكون وحيداً.. لأنه خشي أن يفضح لسانه

تفكيره ولأنه أراد أن يخرج ما برأسه ويضعه أمام عينيه دون رقيب.. ونهض بسرعة.. حتى كأس ماروفسكو لم يشربه، ومد يده مصافحاً صديقه العجوز وخرج مسرعاً إلى عرض الطريق الملبد بالضباب.

لماذا ترك هذا المارشال كل شيء لجان؟!

لم تعد الغيرة.. فقط هي التي تحرك أفكار بيير.. كلا، ولا حتى الحسد الذي بعثه حظ أخيه.. والذي انتهى باستئجار نفس الشقة التي كان يود أن يستأجرها لنفسه ووقف عجزه المالي دون ذلك بينما لم يثن المال أخاه عن تحقيق ما يريد.

أبداً.. ولكنه كان الخوف من شيء مريع. الخوف من أن يثبت فعلاً أن شقيقه جان هو ابن مارشال حقاً.

هل يمكن لبيير أن يصدق هذا.. هل يمكن أن يسمح لنفسه بأن يفكر هذا التفكير.. يجب عليه أن يطرد هذا الوسواس فوراً.. وأن يقتلع الشك نهائياً وإلى الأبد. ما افظع أن يشك المرء في شرف والدته.. وبيير لم يحب في الدنيا إنساناً قدر ما أحب والدته.. ولذا فهو يريد أن يصل بنفسه إلى دليل على براءتها.

والسبيل إلى ذلك هو تحليل كل الحقائق لعله يصل من خلالها إلى ما يهدئ نفسه ويطفئ نيران الشك التي تضطرم فيه.

قال محادثاً نفسه:

- يجب أن أبدأ أولاً بذكر الحقائق.. ثم أحاول أن أذكر كل ما أعرفه عنه - أي عن مارشال - وعن سلوكه ناحية أخي، وناحيتي، ثم أزن

الأسباب التي فضل من أجلها شقيقي علي، وترك له الثروة من دوني. ألم يكن موجوداً ساعة مولد جان؟ نعم.. ولكنه عرفني قبله.. وكان لي الفضل – نتيجة للحمى التي أصابتني واهتمامه بي في تلك الفترة – في أنه أصبح أكثر أصدقاء العائلة المقربين. فالمنطق إذن كان يحتم أن يترك الثروة لي. اللهم إلا إذا كان قد أحس – عندما رأى أخي جان يكبر – بانجذاب ناحيته، وبحب ينشب في قلبه له، ولذا فضله عني.

وأحس بيأس قاتل يجتاحه.. ها هو يصل إلى نقطة البدء دون نتيجة شافية.. وحاول بيير تجنيد كل إمكانياته العقلية، ليتذكر خلال مرحلة الطفولة في باريس، أي شيء عن ذلك الرجل، الذي أصبح فجأة محور تفكيره.. بل ومبعث آلامه معاً.

وكان طيلة هذا الوقت يسير على غير هدى، وقد وضع يديه في جيبي سترته، وسار مطرقاً ناظراً إلى الأرض، لا يحس بأي شيء، سوى أفكاره التي كانت تتطاحن في رأسه في عنف، ورأى أن عملية السير هذه تتسبب في اضطراب تفكيره، وتشوش ما يصل إليه من آراء وتضعف تسلسل الأحداث التي يود أن يصل من خلالها إلى نتيجة شافية حاسمة. ولذلك فقد رأى أن يتجه إلى الميناء لينتحي فيه ركناً قصياً يجلس في هدوء.. ويفكر بإمعان.

وعندما قارب منطقة الميناء وصلت إلى سمعه أصوات صفارة سفينة وهي تنطلق من بعيد.. أصوات خافتة.. كعواء حيوانات ضعيفة تطلب النجدة، وأيقن أن تلك الأصوات لابد منبعثة من سفينة موجودة في عرض البحر ولا تستطيع أن تواصل تقدمها إلى الميناء أو خارجه لكثافة الضباب.

واعترته رعشة شديدة، واهتزت أوتار قلبه، وأحس بأن أصوات الاستغاثة المنبعثة من تلك السفينة الغارقة في لجة الضباب كأنما تنبعث من باطنه هو.. وتوالى صفير السفينة.. وسرى رنينه في الجو الصامت كنواح حزين يتردد في الكون.. ثم رنت صفارة الميناء القوية رداً على الاستغاثات اللهفى المنبعثة من عرض البحر.

وصل بيير إلى رصيف الميناء وانتحى منه ركناً قصياً، ثم جلس على أحد القوائم الحجرية المثبتة هناك، وشعر براحة عندما اكتنفه ظلام دامس ونظر إلى أقصى اليمين، ناحية الفنار، وكان الضوء المنبعث منه يجاهد في استماتة ليخترق حجب الضباب حتى يصل إلى الأعين المتلهفة فوق السفن التي تود الرسو في الميناء فتسترشد بالفنار في دخولها، ولكنه أغمض عينيه فلم يكن يريد أن يرى أي شيء.. حتى ضوء الفنار.. ووضع وجهه بين كفيه وأسند منكبيه على الحافة الجرانيتية الممتدة أمامه وغرق في بحر من التفكير.

وبالرغم من أنه جلس هكذا صامتاً لا ينبس بكلمة إلا أن عقله كان يردد كلمة واحدة.. وباستمرار.. لتقيده دائماً إلى بؤرة تفكيره.. تلك الكلمة كانت "مارشال".

وفي بحر الظلام.. استرجع بيير ذاكرته إلى الخلف إلى أقصى ما يستطيع حتى وصل إلى صورة مارشال التي لا تزال ذاكرته تختزنها في أعماقها.. صورة رجل جاوز الستين ذي لحية مدببة شاب شعرها فاستحال كله إلى بياض وحاجبين كثيفين في مثل بياض اللحية، لا هو بالطويل أو بالقصير، بل كان يتميز بقامة وسط ترتسم على وجهه تعابير الطيبة والحنان، وعينيه البنية اللون التي يرتاح الناظر إليها.. وكان في جملته رجلاً لطيفاً رقيقاً لا يمل

الإنسان مجلسه. كان يخاطب بيير وجان "بولدي العزيزين" ولم يكن يظهر أي تفضيل أو تمييز لأحدهما على الآخر، وكثيراً ما كان يدعوهما لتناول الطعام معه في منزله أو في أحد المطاعم الفاخرة في باريس.

وكما يفعل الكلب المدرب عندما يشم أثراً ثم يتبعه في مسار طويل، فقد تتبع بيير هذا الخيط من الذكريات، وأخذ يحصي كل ما يتذكره عن الرجل الذي فارق الدنيا، وما فيها، طريقة كلامه، حركاته، كلماته، ونظراته إليه وإلى شقيقه.

وقاده خيط الذكريات إلى شقة مارشال في شارع "تردنشب" حيث كان مدعواً هو وجان لتناول العشاء عنده. وكان يقوم على خدمته في تلك الشقة خادمان عجوزان تعودا عندما كانا يشاهدان بيير أو جان أن يخاطباهما قائلين "مسيو بيير" و "مسيو جان" دون أي تميز لأحدهما عن الآخر. وعندما أقبلاً على مارشال، فتح لهما ذراعيه مرحباً وصاح فيهما في ترحيب وفرح:

– أهلاً يا بني الأعزاء.. كيف حال والديكما؟

ولم يكن يبدو عليه أي شيء غير عادي.. بل كان في نظرهما صديقاً كبيراً لطيفاً محبوباً لا يملأن الحديث معه في مختلف المواضيع.

وعندما انتقل رولاند وزوجته للإقامة في لوهافر، وبقي الصبية بيير وجان في باريس ليواصل دراستهما في المدارس هناك، لم ينقطعا عن زيارته. كلما سنحت لهما الفرصة، وكثيراً ما كان يتوجه إلى المدرسة لاصطحابهما إلى منزله، ليقضيا فيه معه وقتاً جميلاً.

وكان مارشال يقرض بيير بعض النقود من حين لآخر، دون أن ينتظر رد

تلك القروض التي كان يفرح بها بيير كثيراً، لأنها كانت تفك ضائقته المالية إذا ما انتهى المصروف الذي كان يرسله له أبوه..

إذن.. فمارشال كان يحب بيير.. وكان يهتم به وبأموره.. فلماذا إذن ترك ثروته لجان ولم يترك له أي شيء!

إن بيير لا يذكر أبداً أن مارشال أبدى في أي تصرف منه في حياته أنه يميل إلى جان أكثر من بيير أو يفضل بيير على جان. بل كان الاثنان لديه متساويين فهل كان لديه سبب قوي.. ليترك كل شيء لجان.. ولا شيء لبيير؟!

واجتاح بيير إحساس شديد بالألم.. وأحس كأن يداً حديدية تقبض على قلبه وتعتصره بقسوة.. وأن الدماء تكاد تنفجر من شرايينه لتملأ تجويف جسمه كله، ويصبح مثل المنطاد، ينتفخ شيئاً فشيئاً ثم ينفجر ويصبح في حكم العدم. وصاح لنفسه وهو يجز على أسنانه ويكور قبضته ويلوحها في الهواء كأنه يواجه عدواً ضارياً.. "يجب أن أعرف.. لابد أن أصل إلى الحقيقة".

وأجهد ذاكرته التماساً للمزيد من الذكريات.. خاصة في الفترة التي كان والداه يعيشان فيها في باريس. غير أن الصور أتت إلى ذاكرته غامضة، باهتة لم يستطع أن يستوحي منها أي حقيقة.. ثم حاول جاهداً أن يتذكر ما إذا كان شعر مارشال أشقر أم أسود.. ولكنه لم يعرف.. لأن ما تعيه ذاكرته من صور كان الشيب قد أخفى منها لون شعره الأصلي وأحاله إلى بياض لكنه يذكر جيداً أنه كان نحيفاً رقيقاً، تحس برقته إذا ما صافحته، وكان لا يأتي إلا

وفي يده صحبة من الورد وكثيراً ما كان يسمع والده يمزح معه وهو يقول:

– إن غرامك بالورد سيكلفك كثيراً.

ويرد عليه مارشال مجيباً:

– دعني يا رولاند وشأني.. فأنا مغرم بالورد ولا يهمني أي مبلغ أنفقه فيه.

ثم فجأة يسمع بيير صوت والدته وهو يأتي من بعد سحيق يتردد في أذنيه كالصدى وهي تقول لمارشال عندما يقدم لها الورد:

– شكراً يا صديقنا العزيز!

إذن.. فمارشال الرجل الغني الأعزب العميل ثم الصديق، كان يحضر الورود هدية إلى زوجة تاجر الجواهر.. لماذا.. هـ كان يحبها؟ كيف صار إذا صديقاً للوالد إذا لم يكن قد أحب الزوجة! كان مارشال رجلاً متعلماً ذكياً وطالما حدث بيير عن الشعر وقرأ له بعض القصائد في رومانتيكية متزايدة.. وأم بيير مغرمة بالشعر، فهل هناك صلة وراء هذا الغرام المشترك؟

إن الصورة تتضح شيئاً فشيئاً أمام عيني بيير.. فمارشال الشاب الغني الرومانتيكي الذي يستطيع اللعب بالعواطف وإثارتها.. ظهر ذات يوم من محل المجوهرات الذي كان يملكه والده، ورأى والدته الحسناء.. وتحدث معها.. وأعجب بها.. وكثر تردده على المحل، وكان يشتري ويدفع، فالمال عنده وفير، لا قيمة له، طالما يحظى بابتسامة من الزوجة وترحيب من زوجها..

ثم.. ماذا حدث بعد ذلك.

وأغمض بيير عينيه.. ووضع رأسه بين يديه وقال في لوعة:

– يا إلهي!. ماذا حدث بعد ذلك!

تعلق بالطفل الأول لأصدقائه وكان كثيراً ما يداعبه ويقبله.. ثم ولد الطفل الثاني.. ثم تعلق بالطفلين معاً.. وظل هكذا حتى مات، وورى جثمانه التراب وأزيل اسمه من قائمة الأحياء ولم يعد هناك ما يخشاه، ثم أعطى فجأة كل ميراثه للطفل الثاني دون الأول.

لماذا! أكانت هذه ضربة ذكاء أحكم تسديدها؟ أكان يعلم أن تركه الثروة لجان كفيل بأن يوحي بأن هذا الابن هو ابنه.. وأن هذه المرأة هي أم ابنه.. بالرغم من كونها زوجة لرجل آخر.. وأم لولد آخر؟!

وفجأة.. حملت موجات التذكر صورة قديمة لمارشال.. ونقلتها بسرعة إلى بيير كما يحمل الأثير ذبذبات الصوت عبر مسافات بعيدة. إن مارشال كان أشقر.. تماماً مثل جان.

لقد تذكر بيير جيداً الآن صورة صغيرة لمارشال كانت موضوعة على رف المدفأة في منزلهم في باريس. لقد اختفت تلك الصورة تماماً الآن.. فماذا حل بها؟ هل اختفت أم كسرت وفقدت؟ آه لو أمكن أن يلقي عليها نظره.. لابد وأن أمه قد احتفظت بها في أحد أدراجها الخاصة كما يحتفظ المرء عادة بذكريات شبابه وحبه. عند هذا الحد.. ندت عن بيير صرخة مكبوتة. انبعثت من أعماقه لأنه لم يعد يقدر أن يخفي ألمه بين حنايا ضلوعه.. وانبعثت في هذه اللحظة صفارة السفينة الغارقة في لجة الضباب.. صفارة متحشرجة كأنها سمعت صرخة بيير فردت عليه مشاركة لألمه، ولكن صفير السفينة استمر.. وعلا كأنه

صوت مارد كبير من البحر، يطلق صيحاته المجلجلة لتخترق الضباب والرياح، والظلام. ثم ساد السكون مرة أخرى.

وفتح بيير عينيه ليوقظ نفسه من ذلك الكابوس الذي غرق فيه. وقال محدثاً نفسه.

– لابد وإنني جننت.. هل أشك في سلوك والدتي

واجتاح قلبه في تلك اللحظة شعور بحب رقراق متدفق دافئ ناحية والدته. كيف يشك في والدته، وما عرف قط شخصاً في حياته قدر ما عرفها! إن روحها لأطهر وأنقى من ماء البحر الممتد أمامه الآن في لا نهائية خالدة. إن من يعرفها ويعاشرها، ليجد نفسه مدفوعاً بإحاطتها بهالات من التقديس بعيداً عن مدار الشك ولكن.. هل شك فيها غريب! أبداً.. إنه ابنها وأكبر أولادها.

ما أشد رغبته الآن في أن يطوقها بذراعيه ويغمرها بقبلاته مبللاً بدموعه وجهها.. مستغفراً تائباً عما بدر منه من أفكار شيطانية خبيثة.

كيف يمكن لامرأة مثل والدته أن تخون أباه!

أباه! حقاً إنه إنسان لطيف مستقيم شريف في معاملاته التجارية.. لكن تفكيره لم يتعد عتبة محله، ودائرة تجارته. فكيف لامرأة في مثل جمال أمه عندما كانت شابة حساسة رقيقة خيالية شاعرية أن تقبل رجلاً في مثل طباع أبيه زوجاً لها.. مع الاختلاف البين في طباع كل منهما؟! ولم يتعب بيير نفسه بالسؤال. لقد تزوجته مثلما تتزوج الفتيات في سنها وفي عصرها اختار لها أبواها هذا الزوج فقبلت، وتزوجت، وأنجبت.. ثم خرجت لتشارك زوجها في

عمله ولتساعده فيه مدفوعة بالإخلاص الغريزي الذي غرسه فيها والداها منذ طفولتها. ووقفت في محل المجوهرات.. بجمالها، وسحرها.. لتزيد دخل الأسرة ولتزدهر تجارتها.. ثم مضت في حياتها هادئة.. آمنة.. مستسلمة دون أن تكره زوجها، أو تحبه.

لكن.. هل يمكن لامرأة.. أي امرأة ألا تحب؟!

هل يمكن لزوجة تعيش في قلب باريس تقرأ الروايات الغرامية وتشاهد المسرحيات التي تموت بطلاتها كل ليلة على خشبة المسرح من الحب ومن أجله.. أن تقضي شبابها دون أن يهتز قلبها مرة بتيار الحب! لا يمكن لبيير أن يصدق هذا بالنسبة لأي امرأة.

وأليست والدتك امرأة ككل النساء.

لابد إذن أنها أحبت كما تحب بقية النساء.. ولا تخفي هذه الحقيقة كونها والدتك لقد كانت شابة شاعرية.. لكنها مقيدة دائماً إلى زوجها في المنزل ليلاً وفي المحل نهاراً، لا يحدثها إلا عن العمل، لا يناجيها إلا بلغة الخسائر والأرباح.. وهي.. هي قد قرأت عن القمر وحلمت به.. قرأت عن الرحلات وهامت بها. قرأت عن قبل العاشقين وتمنتها.. ثم.. ساقت إليها الصدفة ذات يوم رجلاً أحبها وأحبته كما تحكي الروايات أحياناً.

نعم أحبته. ولم لا؟

لم لا تقبل هذا المنطق يا بيير..

ألأنها والدتك؟ أليس من الغباء والعمى أن تغلق عينيك دون الحقائق لمجرد أنها والدتك؟

ثم.. ماذا حدث بعد ذلك؟ هل استسلمت الزوجة للقادم الجديد؟

نعم.. بدليل أنه لم يكن له عشيقة أو صديقة أخرى. لأنه ظل مخلصاً لها حتى عندما تقدمت بها السن وبعدت عنه، ولأنه ترك في النهاية كل ما يملك لولده منها.

ووقف بيير على قدميه وجسمه يهتز ورغبة في القتل تجتاحه في عنف، فمد ذراعه في الهواء، وتقلص كفه على حفنة منه كأنها رقبة آدمي يهصرها ويزهق منها الروح.. لكنها رقبة من ... وروح من تلك التي يود أن يزهقها! لقد كان في قمة جنون الغضب وود لو يقتل كل إنسان يعرفه.. مبتدءاً بوالده وبجان.. وبوالدته.

واندفع كالسهم في طريقه إلى المنزل. وقبل أن يغادر رصيف الميناء، طرق سمعه صوت صفارة السفينة المتحشرج مرة ثانية، ثم أحس بقوته تنهار ولم يجد في نفسه القدرة على مواصلة السير. وتلمس في الظلام قائماً حجرياً جلس عليه.. وكانت السفينة المستغيثة قد تم إدخالها إلى الميناء وسمع بيير صوت حارس الميناء وهو يسأل قائدها:

– ما اسم سفينتك؟

وأجاب القائد في صوت منهك:

– سانت لوكيا

– الجنسية؟

– إيطالية

– الميناء القادم منه؟

– نابولي

وأثار اسم مدينة نابولي بيير.. تخيل بركان فيزوف الشهير وهو يقذف الحمم من فوهته كأنه باب من أبواب جهنم.. وتخيل كذلك بعض المعالم الشهيرة التي كثيراً ما قرأ عنها وحلم برؤيتها وتمنى لو يستطيع أن يبحر إلى أي مكان في العالم، بعيداً عن لوهافر وباريس بل وفرنسا كلها. ولكن.. أنى له تحقيق هذه الرغبة. ليس أمامه إلا العودة إلى المنزل.. والنوم في سريره حتى الصباح.

لكنه لا يود أن يعود إلى المنزل الآن.. بل رغب في أن يقضي الليل هنا في الميناء.. سفينة أخرى.. كبيرة إنجليزية الجنسية عائدة من رحلة إلى الهند.

وتبعتها سفن أخرى.. ثم انداح الضباب، وتكشف البحر.. واشتد البرد.. ولم يجد بيير مفراً من العودة إلى المدينة، ثم عرج على مقهى عب منه كأسين من الشراب أثارا الدفء في نفسه، وساعداه على التغلب على بعض ما بداخله من توتر.. حتى وصل المنزل وفي أقل من خمس دقائق كان في غرفته يتأهب للنوم.

الفصل الخامس



لم ينم بيير كثيراً إذ هاجمه أرق مضن منع عنه النوم. وعندما تنبه تماماً.. وقبل أن يغادر فراشه عادت إلى ذاكرته أفكار الأمس وأخذ يسترجع كل ما وصل إليه من قرائن وكان كلما أمعن في التفكير كلما ازداد يقيناً.

وأحس بالسخونة تجتاح جسمه، وبحلقه الجاف، فقام من الفراش وفتح نافذة غرفته لعل لفحة من الهواء المنعش تدخل، غير أن صوتاً رتيباً مألوفاً تناهى إلى سمعه، منبعثاً من الغرفة المجاورة الخاصة بجان.. وكان هذا الصوت هو شخير جان الذي كان لا يزال نائماً لم يستيقظ بعد.

ونظر بيير إلى الجدار الذي يفصل بين الحجرتين. وهز كتفيه ساخراً. ها هو جان ينام في أمن وسلام.. لم لا.. إنه لا يعلم أي شيء مما يعلمه بيير، ولا يحس بأحاسيسه، ولا يشك في سلوك والدته كما يفعل. إن صديق أمه ترك له ثروته وهو من جانبه قد قبلها في الحال، معتقداً أن الأمر برمته لا غبار عليه.

وها هو، جان الغني جان السعيد، ينام دون أن يدري أن أخاه بيير يختنق من الألم.

وكره بيير في هذه اللحظة صوت شخير أخيه، وود لو أن أنفاسه أخمدت حتى ينقطع هذا الصوت اللعين الذي يكاد يحطم أعصابه.

بالأمس كان بيير على استعداد لأن يطرق باب غرفة أخيه ويجلس بجواره على حافة الفراش ويقول له محاولاً إقناعه "جان .. إنك لا تستطيع أن تقبل هذه التركة. إنها ستجلب العار إلى والدتك وتجعلها عرضة للشك من كل إنسان". أما الآن فإنه لا يستطيع أن يتحدث هكذا مع جان.. لا يمكن أن يقول له أنه ليس ابن والده مسيو رولاند.. لقد كتب على بيير أن يدفن السر الذي توصل إليه بين حنايا صدره، لا يطلع عليه أي إنسان وخاصة أخاه جان! لم يعد بيير يهتم برأي الناس الآن. وود لو أن الناس كلها أشارت بأصابع الاتهام إلى والدته ترميها بالدنس.. على شريطة أن يكون هو وحده.. متأكداً من براءتها!

لكن. كيف له أن يتأكد من تلك البراءة الآن.. وكل القرائن تشير إلى العكس. كيف يستطيع أن يعيش معها بعد اليوم تحت سقف واحد.. وكلما يقع بصره عليها، تصدمه الحقيقة، وهي أنها والدته التي طالما أحبها حتى التقديس. قد خانت والده، وسفحت في أخيه جان!

ولكن.. كيف تتأتى لها كل هذه الوداعة والهدوء برغم فعلتها الشنعاء طيلة هذه السنين؟

أيمكن أن تحس امرأة – أي امرأة – براحة الضمير بعد فعلة كتلك، ثمرتها ابن يعيش في كنف أب – زائف – وهبه اسمه ورعايته وحبه وهو لا يدري أنه ثمرة خيانة زوجته له!

هل يمكن أن تنعم امرأة خانت زوجها بأي طعم للراحة دون ضمير يخز أو صدر تثقله الهموم!

وربما أحست والدتك يا بيير بتأنيب الضمير في الأيام الأولى التي أعقبت زلتها.. ثم تبلد هذا الإحساس شيئاً فشيئاً حتى اختفى تماماً كما يختفي أي شيء.. فالإنسان ينسى بتعاقب الأيام .. والخبرات القوية – محزنة أم سعيدة – تتوارى في لا نهائية الباطن كلما تقادم عليها الزمن. فلابد إذن أن والدتك قد أحزنها ما أقدمت عليه عندما قدمت نفسها لصديق زوجها.. وبالتدريج تناست حزنها. وتناست حتى خطيئتها. أليست كل النساء كذلك؟ لديهن القدرة على نسيان حتى اسم أو شكل الرجل الذي أسلمن له أنفسهن.. في يوم من الأيام.. القبلة كلمع البرق، والحب كالعاصفة.. والحياة دائماً تقربها العواصف ولمعان البرق، ولكن سرعان ما تستعيد هدوءها وتمضي كأن شيئاً لم يحدث.

عند هذا الحد من التفكير أحس بيير أن حجراً ثقيلاً قد وضع فوق صدره، وأن أنفاسه سوف تختنق، ولم يعد يطيق البقاء في حجرته لمدة أطول. وأضاء شمعة ورغب في الخروج إلى المطبخ ليشرب، حيث كان يحس بعطش شديد.

كان كل من في المنزل نياماً. وهبط الدرج في سكون حتى وصل إلى المطبخ فشرب، ثم ملأ كوباً آخر أحضره معه وعاد ليصعد الدرج ثانية غير أنه كان يحس بضيق شديد فجلس على إحدى درجات السلم وعاود الإحساس بالعطش، فرفع الكوب وأخذ يعب منها بنهم كأنه خرج في التو من حلقة الملاكمة أو مضمار الجري.

كان المنزل غارقاً في سكون مطبق، لم يكن يسمع فيه غير دقات الساعة المنبعثة من الطابق الأسفل، غير أن بيير استطاع وسط هذا السكون

أن يميز صوتاً آخ منبعثاً من الطابق العلوي الذي توجد به غرف النوم.. وكان ذلك الصوت هو شخير والده العجوز..

لقد سمع بيير وهو في حجرته شخير جان. وها هو ذا يسمع شخير والده.. رجلان راقدان في سلام لا يشغل بالهما أي شيء.. والمفروض أمام الناس وأمام بعضهما البعض أنهما أب وابن.. ولكنهما ليس كذلك أمام الحقيقة! هما في الحقيقة غرباء.. لا يجمعهما أي رباط.. ولكنهما لا يعلما! هما سعيدان.. يحب أحدهما الآخر. يقبل أحدهما الآخر في مناسبات عديدة.. يتقاسمان الحياة كما لو كانت الدماء التي تجري في عروقهما من فصيلة واحدة.. ومن نبع واحد.. ولكنهما في الواقع الذي تكشف لبيير وحده من دون الناس غريبان عن بعضهما.

إن كذبة واحدة طمست تلك الحقيقة الرهيبة عن أعينهما وعن أعين كل الناس، كذبة واحدة جعلت أحدهما يصدق أنه الأب والآخر يصدق أنه الابن.. ولا يعلم أحد الحقيقة المخزية إلا بيير.. الابن الوحيد الحقيقي للأب المخدوع! لكن.. مع فرض أن بيير مخطئ في كل ما ذهب إليه.. فكيف الوصول إلى ذلك؟ لو كان هناك أي شبه بين رولاند وبين جان.. في أي شيء.. لتعلق بيير كما يتعلق الفريق بقشة التماساً للنجاة.. إنه كطبيب يستطيع أن يعرف تلك السمات مهما صغرت– والتي تدل تبعاً لعلم الوراثة على انتساب الأبناء للآباء.. حجم الفك، تقوس الأنف، المسافة بين الحاجبين، تكوين الأسنان أو الشعر.. بعض العادات.. الحركات.. أنماط السلوك.. أي شيء تستطيع العين الخبيرة أن تتلمسها وتعرف منها صحة الأنساب.

وأجهد بيير ذاكره وقد رسم صورتين متقابلتين لكل من والده، وجان، وأخذ يقابل ككل جزء من الصورتين.. كل سمة يتذكره عنهما ولكن الصورتين ككانت تفتقران إل الكثير من التفصيلات الدقيقة.. ذلك أن بيير لم يدقق فيها من قبل لأن الشك لم يساوره قبل الآن.

قام من جلسته وصعد بقية السلم، وكانت هبة من الهواء قد اطفأت الشمعة لذا فقد آثر أن يكمل طريقه إلى غرفته في الظلام. وعندما مر على حجرة أخيه تسمرت أقدامه، وأحس برغبة جنونية في أن يدخل ويلقي على أخيه النائم نظرة فاحصة ليدقق في ملامحه وتقاطيع وجهه وسماته الجسمية عموماً. لكن.. ماذا يحدث لو أن جان استيقظ ووجد بيير في حجرته.. ماذا عساه أن يقول له!

ولم يستطيع أن يعلل له وجوده في الغرفة في ذلك الوقت! وتسمرت يده على مقبض الباب الذي كان قد أوشك على فتحه وأخذ عقله ينشط باحثاً عن علة يتعلل بها للدخول أو سبب يتذرع به إذا ما أحس جان بوجوده. وتذكر فجأة أنه كان قد أعطى لجان منذ أسبوع علبة من الحبوب المسكنة عندما كان يشكو من ألم في بعض أسنانه، ويستطيع أن يعتذر – إذا ما استيقظ جان – بأنه إنما حضر لأخذ ما تبقى من تلك الحبوب لأن ألم الأسنان هاجمه أيضاً. ولذا فقد قر بيير أن يدخل. وقبل أن يلج الباب، أوقد الشمعة ثم فتح الباب ببطء وبحذر حتى لا يحدث أي صوت من الممكن أن يتسبب في إيقاظ جان.. وكان بداخله إحساس بأنه كاللص تماماً، وكان جان مستلقياً على السرير في استرخاء وقد انفرجت شفتيه عن بعضهما قليلاً وتهدل شعره واقترب منه بيير وسلط عليه عينين فاحصتين..

ولكنه لم يجد أي تشابه بينه وبين والده رولاند.. وارتدت ذاكرته إلى صورة مارشال المختفية.. وصمم على العثور عليها ليقوم بنفس المقارنة. بين جان ومارشال.. حتى يقطع الشك باليقين التام..

وتقلب أخوه في سريره وخشى بيير أن يستيقظ، ولذا فقد آثر الانسحاب بسرعة من الغرفة، ثم أغلق خلفه بابها وعاد إلى حجرته، ولكنه لم ينم.

كان الليل قد انقضى تقريباً، وابتدأت أشعة النهار تتسلل خلال نافذة غرفته المفتوحة وتناهت إلى مسمعه دقات الساعة المعلقة في غرفة الطعام رتيبة عميقة كأنها ناقوس الكاتدرائية، وانتقل صدى الدقات إلى الطابق الأعلى.. حيث اخترق الجدران والأبواب .. ثم مات تأثيره أمام الآذان النائمة.. وأخذ بيير يروح ويجيء في الحجرة كالأسد الحبيس يستبطئ مرور الزمن، يجلس مرة على حافة الفراش، ثم ينهض ويطل من النافذة، ثم يتمشى في الحجرة مدفوعاً بالفكر والقلق وعذاب الوسواس.

ماذا يمكن أن يفعل بيير الآن.. إنه لا يستطيع أن يقضي النهار برمته في المنزل، بل يود أن ينطلق وحيداً، بعيداً عن العائلة، ليكون مع أفكاره فقط.. حتى يستطيع أن يحدد مسار العمل وكيفية التصرف الواجب عليه.

وقرر أن يقضي النهار على شاطئ تروفيل ولذا فقد أسرع بالاغتسال وارتداء ملابسه، وكان الجو يبشر بيوم رائع خال من أي اضطراب في الطقس، ولما كان الزورق الذي يتجه إلى أروفيل يبدأ إبحاره في التاسعة صباحاً، لذا فقد آثر أن يخبر والدته بوجهته حتى لا يقلقوا عليه إذا ما

استيقظوا ولم يجدوه بالمنزل. وانتظر في غرفته قليلاً حتى حان الوقت الذي اعتادت الاستيقاظ فيه، ثم خرج متوجهاً إلى غرفتها، وكان قلبه يدق بعنف عندما اقترب من باب الغرفة، حتى إنه انتظر فترة قبل أن يدخل ليستعيد هدوء نفسه، ثم قرع الباب مستأذناً في الدخول وجاءه صوت والدته من الداخل قائلاً:

– من بالباب؟

وأجاب بيير بصوت جاهد أن يبدو طبيعياً وأن يتخلص من الرعشة التي ألمت به:

– إنه بيير يا والدتي.

وقالت الأم في صوت نصفه نوم ونصفه دهشة:

– ماذا تريد يا بيير في هذا الوقت المبكر؟

– أود فقط أن أخبرك إنني متوجه إلى تروفيل وسأقضي اليوم كله هناك مع ثلة من الأصدقاء.

وردت الأم:

– إني لا زلت في الفراش يا بيير.

وأجاب بيير:

– حسناً.. لا تكلفي نفسك مشقة القيام.. وسأراكم عندما أعود.

وكان يود له لو أنها بقيت في فراشها لعدم رغبته في رؤيتها الآن.. حتى لا يقبلها..

ذلك أن تقبيله لها وبرأسه ما بها من أفكار، كان يسبب له تمزقاً نفسياً يكاد يصيبه بالغثيان.

وهم بالانصراف، غير أن صوت والدته استوقفه قائلاً:

– حسناً يا بيير.. لقد ارتديت ملابسي وتستطيع أن تدفع الباب وتدخل.

ودخل وكانت والدته جالسة في الفراش، بينما كان والده لا يزال نائماً ووجهه تجاه الحائط، والشخير المتعالي ينبعث من أنفه كصفير القطار.. وهو – أي الوالد – عميق النوم دائماً لا يستيقظ في غير موعده إلا إذا هزه أحد بعنف.

قبل بيير والدته من وجنتيها وجلس على كرسي بجوار الفراش وكان يحس بأنه يراها لأول مرة في حياته. وسألته:

– هل عزمت على القيام بهذه الرحلة منذ أمس يا بيير؟

وأجاب وهو مطأطئ الرأس محاولاً ألا ينظر إليها:

– نعم. أمس مساء قررت القيام بها مع بعض الصحاب.

وعادت تسأله:

– هل سترجع قبل موعد العشاء؟

– لا أعرف.. وعلى العموم لا تنتظروني.. وسأتناول العشاء عند رجوعي

وأخيراً رفع بصره إليها..

إذن فهذه المرأة هي والدته! وهذا الوجه هو نفس الوجه الذي عرفه منذ الطفولة.. وذلك الصوت طرق أسماعه منذ أن اعتادت السمع.. وهذه الابتسامة طالما ارتسمت على شفتيها. هي تداعبه، وتقبله، وتبثه حبها وحنانها.. لكن.. كم يحس بغرابة كل هذه الأشياء الآن! إنه ينظر إلى أمه وكأنه يراها لأول مرة.. وهو إحساس غريب لم يداخله من قبل.

ونهض، وهم بالخروج، وداهمه إحساس البحث عن الحقيقة الذي كان يأكل كيانه الداخلي، وقال لأمه فجأة:

– إني أتذكر يا أماه أنه كانت عندنا صورة قديمة لمارشال.

وترددت الأم لحظة – أو هكذا تخيل بيير – ثم أجابت:

– نعم..

وعاد يسأل:

– وأين هي الآن؟

وخيل إليه أنها ترددت مرة أخرى قبل أن تجيب:

– آه.. الصورة.. دعني أتذكر.. لست متأكدة تماماً من مكانها، لكن ربما وضعتها في أحد أدراجي.

– ليتك تجدينها يا أماه

– سأبحث لك عنها

وسادت لحظة من الصمت.. ثم سألته الأم فجأة:

– لكن.. ماذا تريد من الصورة يا بيير؟

وجاء الدور على بيير في التردد.. ثم قال:

– إني لا أريدها لأمر يخصني.. ولكن أعتقد إني لو قدمت لجان لفرح بها جداً.. ولكانت لمسة طيبة مني تجاهه.

وأطرقت الأم وقالت:

– معك حق.. سأبحث عنها بعد قليل.

وخرج من الحجرة.. ثم غادر المنزل كله.

كان الجو صحواً، والسماء صافية، لا تشوبها أية سحابة، والهواء ساكناً وكانت الشوارع في ذلك الوقت من الصباح مليئة بالناس المتوجهين إلى أعمالهم وقد أخذ بعض الفتيات من عاملات المحال التجارية يغنين مستبشرين بجو الصباح الجميل.

وفي الزورق المتجه إلى تروفيل، اتخذ بيير محله على أحد المقاعد الخشبية وفي رأسه تساؤل طالما ألح عليه طول الطريق "هل فاجأتها بالسؤال عن الصورة؟ هل خبأتها أم قطعتها ورمتها؟ هل تعلم مكانها الآن أم لا؟ وإذا كانت مخبأة.. فلم فعلت ذلك؟!".

وأخذ عقله يتتبع تلك السلسلة من الأفكار، ويتنقل من فكرة إلى أخرى ومن تساؤل إلى آخر.

إن الصورة سواء أكانت صورة صديق أم عشيق – ظلت موضوعة فوق رف المدفأة حتى ابتدأت المرأة والعشيقة والأم تلاحظ بنفسها ما بين الصورة والابن من تشابه.

وعندما بتت متأكدة من هذا التشابه، وخشيت أن يحس به أحد غيرها سارعت إلى إخفاء الصورة أو إتلافها.

وتذكر بيير الوضع الذي كان فيه مارشال في الصورة.. وجه عريض ذو لحية.. إذن .. فالأم رفعت الصورة عندما كبر جان. وكبرت لحيته وأصبح الشبه قائماً ومؤكداً بين الاثنين!

وضايقته هزات الزورق لأنها لم تساعد على تسلسل أفكاره، ولذا فقد قام ونظر إلى البحر وكان هناك الكثير من مراكب الصيد المتناثرة فوق سطحه، وتشاغل بالنظر إليها.. وما هي إلا ساعة أو نحوها حتى وصل الزورق إلى ميناء تروفيل.

توجه بيير مباشرة إلى الشاطئ الذي كان يعج بجموع الناس الذين هرعوا إلى أحضانه ضاحكين فرحين، واختلطت ضحكات النساء بصياح الأطفال بقهقهة الرجال. وسار بيير بينهم، وحيداً، غريباً، تائهاً وسط أفكاره الطاحنة كأنه غريق وسط المحيط.

وكره الناس جميعاً.. لأنهم سعداء وهو تعيس. ونظر إلى الرمال وقد استلقت عليها النساء بثيابهن المزركشة فاستحالت كالبستان وقد نبت فيه مختلف الأزهار.

ونظر إلى النساء المستلقيات على الرمال، والرجال الجالسين بجوارهن.

وقال لنفسه: كم من هؤلاء النسوة مع زوج.. وكم منهن مع عشيق.. إن النساء لبارعات حقاً في اصطياد الضحية، سلاحهن ابتسامة، أو كلمة، أو إيماءة.. والرجال.. ما أسهل وقوعهم في الشرك..

إن الشاطئ الممتد، المغطى بتلك الأجساد الآدمية، ما هو إلا سوق للحب، بعض النساء فيه يبعن أنفسهن، والبعض الآخر يعطين أنفسهن في سماحة..

وفكر في والدته في هذه اللحظة.. أيمكن أن تكون مثل هاتيك النسوة. أينطبق عليها هذا الكلام!

وهز رأسه في سخرية.. وغادر منطقة الشاطئ وليست به أية رغبة في الاستحمام أو مشاهدة المستحمين، واتجه إلى أحد المقاهي وجلس على أحد مقاعده، وعندما حضرت إليه النادلة تذكر فتاة المقهى في لوهافر وتذكر أنها كانت أول من غرس بذرة الشك عنده تجاه والدته.. وكرهها.. وكره الفتاة الواقفة أمامه وود لو يصفعها.. ولكنه سرعان ما تنبه إلى غرابة تفكيره، وأراد أن يصرفها من أمامه بسرعة، فطلب قدحاً من القهوة، شربه على دفعتين، وكان التعب وأرق الليل، قد أخذا منه كل مأخذ فأسند رأسه إلى حافة المنضدة وغرق في النوم.

عندما استيقظ ونظر في ساعته وجد أنه يجب أن يسرع ليلحق بآخر موعد للزورق العائد إلى لوهافر، ولذا فقد غادر المقهى بخطى سريعة لم تهدأ إلا عندما اتخذ مجلسه على ظهر الزورق.

إنه الآن في طريقه إلى لوهافر.. ثم إلى المنزل، وسيقابل والدته. فهل بحثت على صورة مارشال، وهل وجدتها؟ هل ستخبره بها أولاً أم ستنتظر حتى يعيد عليها السؤال؟ وقال بيير لنفسه كأنه يصل إلى نتيجة منطقية "لو لم تخبرك بأمر الصورة يا بيير بنفسها.. ولو انتظرت حتى تطلبها منها مرة

ثانية، لدل هذا بالتأكيد على وجود سر لديها يجعلها تحرص على ألا يراها أحد".

جلس بيير في حجرته في المنزل انتظاراً لحلول موعد العشاء.. وكان يود لو لم ينزل.. إذ زامله إحساس بالقلق وشعر بضربات قلبه تزداد حتى بلغت الذروة عندما صعدت جوزفين تدعوه للنزول، ولم يجد مناصاً من مغادرة الحجرة. ونزل الدرج ثم دخل حجرة الطعام، حيث كان والده، ووالدته وشقيقه جان جالسين حول المائدة في انتظاره، وسمع والده وهو يسأل:

– هل انتهيتم من شراء كل شيء؟

وردت الأم قائلة:

– تقريباً.. وإن كنا لم نشتر الأثاث بعد.

وكانت مدام رولاند قد قضت النهار برمته مع جان يتنقلان بين محلات النجارة وبيع الأثاث ليختارا ما يلزم لتأسيس شقة جان الجديدة. وكان من رأى مدام رولاند أن يتم انتقاء كل فاخر ثمين، لأن الأثاث الفاخر كفيل بجذب الانتباه، بينما كان جان يميل إلى البساطة مع سلامة الذوق، وكانا كلما دخلا أحد المحلات وعرض عليهما صاحبه ما لديه من رسومات، ثارت بينهما مناقشة حامية؛ كل يدافع عن وجه نظره، وكانت الأم تردد له دائماً أن العميل إذا ما دخل المكتب ووجده فاخر الأثاث، فإنه سيضع ثقته في المحامي، بل ويدفع الأتعاب المرتفعة التي يطلبها عن طيب خاطر!

وانتقلت هذه المناقشة من محلات الأثاث إلى غرفة الطعام وثارت عند دخول جوزفين بإناء الحساء، ولم يكن لمسيو رولاند أي نصيب في ذلك

النقاش مكتفياً بإعطاء فمه للطعام وأذنيه للحديث الدائر بين الأم وولدها.

وعندما طال النقاش، التفتت الزوجة إلى زوجها قائلة:

– ما رأيك أنت في الموضوع. ألست على حق فيما أقول؟

ولكن مسيو رولاند قال لها نائياً بنفسه عن المشاركة في هذا اللهو – على حد تفكيره:

– لا تطلبي رأيي في أي شيء.. كل ما أستطيع أن أفعله هو أن أتوجه إلى الشقة وألقي عليها نظرة، بعد أن تنتهيا من تأثيثها.. وسأعرف من سينتصر بذوقه في النهاية.

وكان بيير قد جلس في صمت يرقب الحديث الدائر دون أن يشارك فيه، والتفتت إليه والدته وسألته:

– وما رأيك أنت يا بيير؟

وكانت أعصابه متوترة، ولكنه جاهد في تصنع الهدوء، وقال في لهجة شابها بعض الجفاف الذي لم يفلح في إخفائه:

– أظن أني من رأى جان.. فالبساطة دائماً أبلغ في التعبير عن شخصية الناس أكثر من البذخ الذي لا يدل إلا على تراكم الأموال لديهم.

وردت الأم قائلة:

– يجب أن تعلم إننا نعيش في مدينة، معظم سكانها من التجار الذين يهتمون بالمظاهر..

ولكن بيير أجاب بشيء من الضيق قائلاً:

– وماذا في ذلك.. هل من الضروري إذا رأينا قوماً سخفاء أن نتشبه بهم؟

إن ذلك يشبه الذي يفرط في عرضه لأنه رأى أناساً غير شرفاء..

ثم صمت لحظة وقال:

– إن المرأة لا تسقط، لمجرد أن لجارتها عشاقاً!

وضحك جان لقول شقيقه.. وقد راقته حدة كلامه، وقدرته على تفنيد رأي محدثه وقال له:

– إن من يسمعك يا بيير أحياناً يظنك واعظاً أخلاقياً..

ولم يرد بيير، بينما استمرت والدته وجان يستعرضان بقية الأشياء اللازمة لتأثيث الشقة، ونظر إليهما في صمت.. وعاوده نفس الإحساس الذي أحس به عندما نظر إلى والدته، فقد شعر كأنه شخص غريب يجلس بين قوم لا يمتون له بأية صلة.. ثم نظر إلى والده. وأمعن في النظر. ثم انتقل ببصره إلى جان، وأخذ يطابق ما بين الصورتين.. ولكنه لم يجد أي تشابه بينهما.

منذ يومين.. كان هؤلاء الأربعة يجلسون حول المائدة يمثلون أفراد عائلة صغيرة متماسكة.. ولكن ماذا حدث؟ لقد امتدت يد مجهولة.. يد آثمة.. يد رجل ميت، لتحطم كل الروابط التي تربط بينهم.. ولتحيل دعائم الأسرة إلى أنقاض حربة! ها هو ذا بيير يفتقد الأم.. لأنه لم يعد يحبها، لم يعد يقدسها أو يوليها نفس الاحترام الذي كان يكنه لها قبل أن يقف على السر المكنون.. ثم ها هو ذا يفتقد الشقيق أيضاً.. لأن شقيقه، أو من كان يظن أنه شقيق،

قد اتضح أنه ليس ابن أبيه.. ولم يبق له في الأسرة إلا والد عجوز سمين.. ضعيف.. لا هم له إلا الطعام، والشراب، ورحلات الصيد..

سأل بيير والدته فجأة وقد استجمع كل شجاعته ليطلق السؤال:

– هل بحثت عن الصورة يا أماه؟

وومضت عيناها ببريق من الدهشة لمفاجأة السؤال، وحاولت المراوغة، ولذا فقد قالت:

– أية صورة تعني؟

ولكن بيير كان مصراً على سؤاله.. وقال في إصرار:

– صورة مارشال.

وارتبكت الأم، وقالت:

– لا.. أعني.. نعم، لم أجدها، وإن كنت أظن إني أعرف مكانها.

وأفاق رولاند من تركيز كل حواسه على الطعام، وتساءل عندما لحظ ارتباك زوجته، وإصرار ابنها الواضح من رنة صوته:

– ما هو الموضوع؟

وأجاب بيير قائلاً:

– صورة صغيرة لمارشال كانت لدينا عندما كنا في باريس.. ولقد ظننت أن جان يهمه أن يطلع عليها الآن ليتذكر الرجل الذي أورثه كل ما يملك.

وقال مسيو رولاند مؤمناً على قول بيير:

– طبعاً طبعاً.. إني أذكر تلك الصورة جيداً.. لقد رأيت هذه الصورة

بالذات منذ أسبوع، عندما كانت والدتك ترتب بعض أوراقها.. كان ذلك يوم الخميس، أو الجمعة أليس كذلك يا لويز (مدام رولاند)؟ كنت ساعتها أحلق ذقني، بينما كنت أنت ترتبين أدراجك ووضعتها على أحد المقاعد بجوارك، وبجانبها حزمة من الرسائل القديمة.. ولقد رأيتك وأنت تقذفين بنصف هذه الرسائل في نار المدفأة. أليس من الغريب أن يبلغنا نبأ موت مارشال بعد رؤية صورته بأقل من يومين أو ثلاثة؟

واستعادت مدام رولاند هدوءها. وقالت في صوت خفيض:

– لقد تذكرت الآن مكانها وسأقوم بإحضارها بعد قليل

والتمعت عينا بيير وومض في نفسه بريق مخيف. إذن فقد كانت تكذب عندما سألها عن الصورة في الصباح وعندما أجابت بأنها لا تعرف في الحقيقة مكانها!. وها هي ذي الحقيقة تتكشف أمامه.. لقد أخرجت الصورة من مكمنها منذ أسبوع أخرجتها لتتأملها ولتلقي عليها نظرة، ولتلمسها بيديها ثم تعيدها إلى مخبئها وسط الرسائل القديمة التي لابد وأن تكون رسائل مارشال إليها.

ونظر بيير إلى والدته التي كذبت عليه. نظر إليها كما ينظر الابن المخدوع إلى أمه التي خدعته، وأحس كما يحس الرجل عندما يعرف أن غشاوة قد انزاحت من فوق عينيه لتكشف له تفاصيل خيانة بشعة جرت من خلف ظهره.

لو كان هو زوجها.. فماذا كان في مقدوره أن يفعل؟ هل يمسكها من

خصلة شعرها بكل قوة ويوقعها فوق الأرض وينهال عليها ركلاً بقدمه حتى يكل ويتعب؟

ولكنه ليس الزوج.. هو الابن الذي لا حول له ولا قوة.. والذي لا يستطيع أن يفعل شيئاً! لأنه لا حق له في أن يفعل أي شيء، فالخيانة كانت لأبيه ولم تكن له.. ولكنها خانته هو أيضاً.. خانت حبه لها.. خدعته طوال تلك السنين.. استحوذت على احترام لا تستحقه، ونالت براً لا تستأهله.. ولو تحول كل ما يحس به الآن من غضب إلى كراهية لها.. لكانت هي الملومة، ذلك أنها ارتكبت في حقه جريمة أبشع مما ارتكبته في حق زوجها وأبيه.

إن الحب بين الرجل والمرأة.. هو اتفاق على المعاشرة والزواج ولو خان أحد الطرفين هذا الاتفاق فإنه يكون قد أجرم في حق الآخر.. أما إذا اصبحت المرأة أماً.. فالأمر يختلف، ذلك أن الطبيعة عندئذ تكون قد اختارت المرأة لتكون ربة لأسرة. ويصبح عبء حماية الأسرة طوقاً في عنق المرأة، لابد وأن تحافظ عليه. فإذا زلت بالرغم من هذا.. فما أبشع جرمها حينئذ!

رفع مسيو رولاند كأسه الأخير الذي اعتاد أن يتناوله عقب الانتهاء من الطعام، ثم مد ساقيه في استرخاء، وقال بلا مناسبة:

إذا كان عند الإنسان ما لا يكفيه.. فلا يعيره أبداً ألا يكون بلا عمل..

وصمت قليلاً ثم عاود الحديث:

- وها أنت يا جان قد أصبحت غنياً ولا أظنك ستبخل علينا بدعوة عشاء في أفخم المحلات بين الحين والآخر.

ثم نظر إلى زوجته وقال لها بعد أن لاحظ توقفها عن تناول الطعام:

- هيا وأحضري لنا الصورة يا عزيزتي ما دمت قد انتهيت من تناول الطعام كما أرى.. فأنا أريد أن ألقي نظرة عليها بنفسي لأتذكر وجه صديقنا الراحل العزيز.

ونهضت الزوجة في هدوء ثقيل وحملت إحدى الشمعات في يدها وانصرفت خارجة من الحجرة كالسجين المساق إلى ساحة القضاء ليسمع حكم الإدانة، وغابت دقائق قليلة ظنها بيير دهراً ثم عادت وفي يدها اليمنى الشمعة، وفي اليد اليسرى حملت الإطار الصغير الذي يضم الصورة.. التي ناولتها لبيير وهي تقول:

- ها هي ذي الصورة.. لقد عثرت عليها في سهولة.

أمسك بيير الصورة في لهفة وحملق فيها متفحماً إياها بكل دقة.. وأحس بأن والدته تراقبه بنظراتها الصامتة، ولكنه لم يستطع أن يمنع عينيه من النظر إلى جان ليجري عملية المقارنة التي طالما تاق إليها، وصدمته النتيجة.. وود لو يصيح فيهم جميعاً قائلاً:

- إن الصورة تشبه جان إلى حد كبير.

بيد أنه لاحظ أن والدته قد استدارت وأولته ظهرها.. وتشاغلت بصب كأس لها.. ولكن في بطء شديد.. لقد تأكدت الآن أنه قد عرف، أو ان شكوكه قد أثيرت على الأقل.

قال رولاند وهو يمد يده لأخذ الصورة من بيير:

- دعني ألقي نظرة يا بيير.

وقرب الشمعة ليستطيع أن يرى أكثر، ثم قال بعد أن ألقي عليها نظرة سريعة:

– يا للمسكين! لقد كان شاباً فتياً عندما ابتدأت معرفتنا به كان وسيم أنيقاً، وكريم الخلق.. أليس كذلك يا لويز؟ "مدام رولاند".

ولأنه لم يسمع تعليقاً من ناحية مدام رولاند، فقد استمر قائلاً:

–كان طيباً جداً، ولا أتذكر إني رأيته غاضباً أبداً.. يا لها من دنيا.. لقد رحل وترك كل شيء. لكن حمداً لله أنه تركه لابننا ولم ينسنا حتى في مماته وهذا دليل على إخلاصه وطيبته.

وتناول جان الصورة بدوره، ثم قال في أسف:

– من المؤسف أني لا أتذكر منه إلا شعره الأبيض.

وناول الصورة لوالدته فأخذتها ونظرت إليها في لمحة خاطفة وأدارت عينيها بعيداً كأنما هي خائفة من أن تؤول نظرتها تأويلاً ليس في مصلحتها ثم قالت:

– يمكنك أن تحتفظ بالصورة يا جان.. فأنت وريثه الوحيد في كل ما يتعلق به.ضعها في شقتك الجديدة يا بني.

وعندما انتقل الجميع إلى غرفة المعيشة ليتناولوا القهوة كانت الصورة لا تزال في يد مدام رولاند، حيث وضعتها فوق رف المدفأة كما كانت في مسكن باريس في السنين الماضية..

أشعل رولاند غليونه. بينما تناول كل من بيير وجان سيجارة من الصندوق الموضوع فوق المدفأة، وأشعل كل منهما سيجارته بنفسه، وبينما

وقف رولاند بجوار النافذة، جلس جان على أحد المقاعد ذي المسندين، ومد ساقيه أمامه في استرخاء وراح يتابع ببصره خيوط الدخان المنبعثة من سيجارته، أما بيير، فلم يجد متنفساً لشحنة القلق التي كانت تعتمل في نفسه ألا أن يروح ويجيء في الحجرة وهو مغرق في التفكير.. بينما جلست مدام رولاند على أحد المقاعد بجوار المصباح متشاغلة في ترتيب خيوط صوفية اعتزمت أن تصنع منها سجادة لغرفة نوم جان في الشقة الجديدة.

وكانت بين الحين والآخر، ترفع عينها بحركة لا شعورية، وترمق الصورة الموضوعة على رف المدفأة، ثم تنقل بصرها بسرعة إلى جان، ثم تتشاغل في ترتيب الخيوط خشية أن يلحظها أحد وهي تقوم بعملية المقارنة بين الصورة وبين ابنها.

ولم تتنبه إلى أن بيير كان يلحظها في كل مرة تنظر فيها إلى الصورة.. فيطحنه الألم.. ويعتريه شعور بالرضى في نفس الوقت ويقول لنفسه:

- لابد أنها تتعذب الآن، لأنها أصبحت تشك في أني عرفت سرها.

وكان بين الحين والآخر، يلقي نظرة إلى صورة مارشال وإلى شعره الأشقر، ويزداد يقيناً من أن ظنونه في محلها.. كل هذا بينما الصورة الصغيرة التي لا يزيد حجمها على حجم كف اليد، رابضة في مكانها كأنها روح شريرة، تحمل نذر الخراب لتلك الأسرة الصغيرة..

دق جرس الباب فجأة ولحظ بيير أن والدته جفلت لصوت الجرس المفاجئ، وتأكد لديه أن حالتها العصبية ليست على ما تتظاهر به من هدوء، ثم قالت مدام رولاند في هدوء مصطنع!

– لابد أنها مدام روزيمللي.

ثم نظرت إلى الصورة نظرة أخرى مليئة بالقلق وفهم ببير.. أو خيل إليه أنه فهم سر خوفها من الصورة وهي في ذلك المكان. إن نظرة المرأة دائماً أكثر تعمقاً من نظرة الرجل، وكما أن تفكيرها ينحو إلى الشك دائماً، ولا شك أن الأم تخشى أن تلحظ القادمة الجديدة – عندما تنظر إلى الصورة ما بينها وبين جان من شبه وبالتالي فإنها ستفهم بقية السر المكنون.

وسرى خوف مفاجئ في نفس ببير.. خوف من أن يعرف شخص غريب ذلك حتى والده ووالدته، ودخلت في هذه اللحظة مدام روزيمللي وقالت بعد التحية التقليدية:

– لقد تضايقت من الوحدة فعزمت على هذه الزيارة لأقضي معكم بعض الوقت.

وانتهز ببير انشغال والدته ووالده وجان في الترحيب بمدام روزيمللي، وانسل خارجاً من الغرفة، ومعه في جيبه صورة مارشال. ودهش الجميع لخروجه المفاجئ بمجرد دخول مدام روزيمللي، وتضايق جان من هذا التصرف، لخشيته من أن تفسره مدام روزيمللي على أنه إهانة لها، وتمتم قائلاً:

– يا له من جلف لا يحسن التصرف مع النساء.

وعقبت مدام رولاند قائلة كأنها تتلمس لببير عذراً:

– إنه ليس في حالة طيبة اليوم، كما أنه متعب من رحلة تروفيل.

ولكن مسيو رولاند رد قائلاً:

– إن هذا ليس مبرراً لأن يندفع من الحجرة هكذا مثل الثور.

وابتسمت مدام روزيمللى محاولة تلطيف الجو مبينة لهم أنها لم تتضايق النبتة من هذا التصرف، غير أن جان قال ومسحة الضيق لم تزايله:

– إن تصرفات أخي أصبحت لا تحتمل.. خاصة في الأيام الأخيرة.

الفصل السادس



انقضت بضعة عشر يوماً.. لم يحدث خلالها ما يذكر لعائلة رولاند.. سوى انتقال جان إلى شقته الجديدة بمساعدة والدته بينما كان مسيو رولاند يقضي معظم الأيام مشبعاً هوايته في صيدا السمك.. أما بيير فلم يكن يراه أحد في المنزل إلا في مواعيد تناول الطعام. كان الوجوم، والتجهم، يكسان وجهه باستمرار.

وفي ذات ليلة بعد العشاء قال له والده:

– لماذا تبدو هكذا دائماً بحق السماء.. ما بال الهم قد ركب على كتفيك؟!

وأجاب:

– لأني أحس بعبء الوجود والتزاماته.

ولم يفهم الوالد ما يعنيه قول بيير وإنما قال:

– لقد لاحظت منذ اليوم الذي أسعدنا الحظ بثروة أخيك، أن بعض أفراد الأسرة قد زايلتهم السعادة.. كما لو كانت قد حدثت لنا مصيبة.

ورد بيير قائلاً:

– إني في الواقع حزين من أجل أحد الأشخاص.

وقال الوالد في دهشة:

– ومن يكون ذلك الشخص بحق السماء؟

وظن مسيو رولاند آن بيير يعني بقوله امرأة أحبها، ولكنها لاوعته أو هجرته ولذا فقد كانت لهجته في تساؤله الأخير فيها قدر من السخرية الواضحة. ولكن بيير أجاب في هدوء متجاهلاً سخرية والده:

– شخص لم تعرفه في حياتك، ولم تقابله أبداً.

وعاود رولاند التساؤل قائلاً:

– هل هي امرأة؟

– نعم..

– ماتت؟

– أفظع من ذلك.. إنها ضاعت.

– آها..

وطأطأت الأم التي كانت جالسة صامتة طيلة هذا الحديث رأسها ولم تنبس بكلمة واحدة، وبالرغم من أن مسيو رولاند قد أدهشته صراحة ابنه في حديثه عن علاقة خاصة كهذه، وفي حضرة والدته إلا إنه لم يرغب في المزيد من النقاش في الموضوع ، ذلك أنه قد عود نفسه منذ أن شب ولداه ودخلا دور الرجولة على ألا يتدخل في أمورهما الخاصة بطريقة تحرج أيهما.

بدا على مدام رولاند أنها لم تفهم ما يعنيه بيير أو لم تلتفت جيداً، وكانت جالسة وجهها أصفر وحالتها ليست على ما يرام وكان مسيو رولاند

قد لحظ اضطراب صحتها في الأيام الأخيرة وميلها إلى الصمت المطبق، حتى أنه قال لها ذات مرة:

– إنك لست على ما يرام يا لويز.. وأظن أنك قد أجهدت نفسك في ترتيب شقة جان.. ولعمري.. لم تنهكين نفسك هكذا بينما يستطيع هو استئجار من يخدمه وهو على هذا القدر من الثراء.

وهزت المرأة رأسها دون أن تجيب على ملاحظة زوجها وفي ذلك المساء، اشتدت صفرة وجهها ولاحظ زوجها ذلك، وقال لها في لهجة ودودة:

– اسمعي يا عزيزتي.. يجب أن تعتني بنفسك أكثر من ذلك..

ثم التفت إلى ابنه الطبيب وقال له:

– إنك لابد قد لاحظت أن والدتك ليست على ما يرام فماذا فعلت يا طبيب العائلة؟ هل فحصتها؟

وأجاب بيير:

– لا.. لأني لم ألحظ عليها أي شيء غير عادي.

وفقد رولاند العجوز هدوءه وقال في ثورة:

– يا إلهي! إن أي شخص عادي يستطيع أن يلحظ ذلك بسهولة..

ثم نظر إليه في سخرية قائلاً:

– قل لي يا دكتور.. ما فائدة أن تكون طبيباً، إذا لم يكن في استطاعتك أن تلاحظ أن والدتك ليست على ما يرام! انظر إليها وأنت تعرف

أن قولك هذا يجعلنا نطمئن جداً إلى أننا قد نمرض ونموت دون أن تلاحظ أنت شيئاً.

وكانت أنفاس مدام رولاند قد بدأت تضطرب، واشتد امتقاع لونها حتى أن زوجها نظر إليها في جزع، ثم قال لابنه الطبيب كمن يستحثه لنجدتها:

– انظر إلى حالتها الآن.. إنها على وشك الإغماء.

ونظرت إليهم مدام رولاند وقالت في صوت ضعيف متقطع:

– لا تقلقوا.. فأنا بخير..

وأسرع بيير إليها ووقف أمامها محدقاً فيها قائلا:

– ماذا بك؟

وأجابت بنفس الصوت اللاهث المتقطع:

– لا شيء البتة..

وكان مسيو رولاند قد أسرع وأحضر زجاجة الخل بلل منها شفتي زوجته وقال لابنه:

– أسرع بحق السماء، وافعل أي شيء لها.. هل قست ضربات قلبها؟

ومد بيير يده ليمسك رسغها حتى يقيس سرعة دقات القلب، ولكنها أبعدت يدها عنه في شيء من العنف حتى أنها اصطدمت بحافة المقعد المجاور لها.. ونظر إليها في برود ثم قال:

– ما دمت مريضة فيجب أن تستسلمي للعلاج.

ومدت له ذراعها مستسلمة لأصابعه القوية، وهو يضغط على جانب رسغها يقيس سرعة نبض القلب، ثم قال لها:

– عندك هبوط في القلب، يجب أن أكتب لك تذكرة دواء.

وانحنى على المنضدة ليصف لها العلاج، وسرى إلى أذنيه صوت آهات مكتومة ونحيب خافت فرفع رأسه إلى حيث وقفت والدته ورآها وقد وضعت وجهها بين كفيها وأغرقت في بكاء خافت.

اقترب مسيو رولاند من زوجته وربت عليها في حنان وقال لها مهدئاً:

– لويز.. ماذا بك يا عزيزتي.. ماذا بك؟ ولكنها لم تجب وبدا عليها أن حزنها أكبر من قدرتها على التعبير عنه، وحاول زوجها أن يمسك يدها ليبعدها عن وجهها ولكنها منعته وهي تهتز في تشنجات البكاء مرددة:

– لا لا لا..

والتفت إلى ابنه بيير وقال له متسائلاً:

– ماذا بها يا بيير.. إني لم أرها في حياتي كما هي عليه الآن.

وأجاب بيير في هدوء:

– لا شيء.. مجرد هبوط ناتج عن اضطراب عصبي.

ونظر إليها.. وأحس ببعض الراحة تسري في أوصاله .. ها هي ذي تتعذب.. ها هي ذي توفي بعض الدين الذي تحمله على كتفيها نتيجة العار الذي جلبته لنفسها.. أن المجرم لابد له من عقاب.. وهي قد أجرمت.. وها

هي ذي توفي مدة العقوبة، في عذاب الألم، والخوف.. والشك.. وأحس ببير كأنه قاض أصدر حكماً على متهم وارتاح لعدالته وسداد حكمه.

وفجأة اندفعت من الحجرة بكل سرعة، ثم اتجهت إلى حجرتها وأغلقت الباب قبل أن يفيق الأب والابن من الدهشة، وقبل أن يحاول أي منهما أن يمنعها، ووقف رولاند وبيير ينظران إلى بعضهما في حيرة ودهشة.

وسأل مسيو رولاند ابنه.

- هل عندك فكرة عن أي شيء؟

وأجاب بيير في هدوء وثقة:

– نعم..

وازدادت دهشة الأب ولكن بيير أردف قائلاً:

– إن حالة والدتي لا تعدو مجرد كونها حالة عصبية تصيب في الغالب الأمهات اللاتي يبلغن مثل سنها.. وستنتابها هذه الحالة كثيراً.. بعد الآن..

وبالفعل تكررت لمدام رولاند تلك الحالة من الاضطراب العصبي وكان بيير يستخدم كل ما أوتي من ذكاء ليستثيرها بكلمة أو ملاحظة.. لا يفهم منها أي أحد سواهما أي معنى ولكنها هي، بكل حساسياتها للموضوع.. كانت تخر فريسة الاضطراب والتوتر.

وكان هو يجد في هذا شيئاً من تخليص الدين.. ووفاء لجزء من العقوبة، كان معه مفتاح سرها يلوحه لها وقتما يشاء وكما كانت تقاسي الأم.. كانت

آلام الابن أشد وعذابه أنكى! وكان سر عذابه يكمن في أنه قد فقد نهائياً كل احترام وكل حب لها، وكان في نفس الوقت لا يستطيع أن يمنع نفسه ولو باطنياً من التعذب لعذابها.

وعندما ألهب الجرح الدامي في قلب المرأة والأم.. عندما تأكد لديه أنه قد وضع أطناناً من المواد المشتعلة وألقى بأمه فوقها لتحترق بنيران التذكر.. عندما تأكد من حالة اليأس والأسى التي دفعها إليها، ذهب إلى المدينة وضميره كقطعة من الجمر المتأجج بين ضلوعه والشفقة على فريسته المسكينة تكاد تقتله، وكله أسى لأنه دفع بها في غير رحمة بين أنياب الاحتقار.. وأحس

برغبة جنونية في أن يلقي بنفسه في البحر.. وأن يتخلص من كل تلك الأحاسيس بإغراق نفسه في مياهه العميقة.

هل يستطيع أن يصفح عنها.. كم كان يشعر بالسعادة لو فعل.. ولكنه لا يستطيع أن يصفح، لأنه لا يستطيع أن ينسى. وتمنى لو يجد طريقة يخلصها فيها من العذاب، ولكنه هو نفسة يتعذب، وهل يمكن أن يستريح كلاهما!

كان يعود إلى المنزل في أوقات الطعام وهو مصمم على أن يبحث على أية وسيلة يهدئ بها اضطراب والدته وليخفف عنها.. ولكنه ما أن يراها ويري نظرات الخوف والاضطراب في عينيها حتى تجمد الكلمات الرقيقة التي كان قد أعدها على شفتيه.

ذلك لأن السر المخزي الذي اكتشفه، والذي لا يعلمه أحد غيره

وغيرها، أصبح كسعار الكلب في دمه، يستحثه دائماً على الهجوم.. حتى ولو لم تكن له رغبة في ذلك.. تماماً مثل الكلب المجنون، يعض ويعض.. لأن شهوة الايذاء أصبحت في دمه.. ولم يكن هناك الآن ما يمنع أو يعرقل بيير عن ممارسة شهوة الايذاء هذه بالنسبة لوالدته، فجان أصبح يقضي معظم وقته في شقته الجديدة، ولم يعد يحضر إلى المنزل إلا في وقت العشاء، حيث ينضم إلى العائلة، ثم يقضي الليل، ويعود ليقضي نهاره جله في الشقة التي تفتن هو ووالدته في تأثيثها وتجميلها. وكثيراً ما لاحظ جان العنف المتربص في نظرات أخيه وكلماته، والمرارة التي تعتمل في نفسه، ولكنه كان يرجع ذلك دائماً إلى غيرة شقيقه منه، وكان يقسم بينه وبين نفسه أنه يوماً ما سوف يلقن بيير درساً لن ينساه وسيجعله يلزم حدوده، لأنه أصبح بفظاظته وسوء تصرفاته، مبعث نكد كبير للأسرة، أحال حياتها إلى جحيم مستمر.

ولكنه كان ينسى أمر أخيه بسرعة لأنه لم يعد يقضي في المنزل فترة طويلة، ودفعه ميله الدائم للمسالمة إلى أن يؤجل اللقاء المنتظر بينه وبين بيير. وبالإضافة إلى هذا، فإن رأسه أصبح مشغولاً بالثروة وطرق تنظيمها وإنفاقها أكثر من انشغاله بأي شيء آخر، ليس له تأثير شخصي مباشر عليه، وتغيرت اهتماماته.. ومواضيع حديثه وأصبحت شقته الجديدة – المحور الرئيسي لحديثه يتكلم عنها باستمرار.

وكان جان قد قرر أن يدعو العائلة إلى رحلة خلوية إلى سانت جوين ثم تتوجه العائلة عند عودتها إلى شقته لتناول الشاي. وراقت الفكرة لمسيو رولاند، واقترح أن يذهبوا إلى سانت جوين عن طريق البحر، ولكن طول المسافة، وعدم الاطمئنان إلى حالة الجو دائماً لم يكونا في صف اقتراح رولاند، ولذا فقد

استأجر جان عربة كبيرة، يجرها حصانان سمينان لهذه المناسبة.

وبدأت الرحلة في الساعة العاشرة صباحاً كي يضمنوا وصولهم وقت الغداء، وكان معهم كابتن بواسير ومدام روزيمللي، وكان الطريق الواسع المترب، والأراضي الزراعية التي تحيطه من الجانبين بما فيها، من أشجار باسقة كثيرة، أشبه بمتنزه لا نهائي، وكان راكبو العربة يستمتعون بتلك المناظر التي لا تتوافر دائماً لساكني المدينة وهم في نشوة بالغة.

وصل الموكب بعد ساعتين إلى منطقة طواحين الهواء التاريخية المشهورة، حيث تدور مراوحها المتآكلة في تباطؤ كلما هزها الهواء، وتوقفت العربية أمام فندق صغير أنيق، خرج صاحبه للترحيب بهم، وفتح باب العربة ومد يده ليساعد السيدتين في النزول.

كانت كل قاعات الفندق مكتظة بجموع الوافدين إلى تلك المنطقة الساحلية الزراعية التي جمعت بين جمال الريف وروعة ساحل البحر، وسار صاحب الفندق أمام آل رولاند وضيفيهم يقودهم إلى إحدى الموائد الخالية. وعندما جلسوا لاحظ مسيو رولاند وجود بعض الشباك الصغيرة من النوع الذي يستعمل في صيد الجمبري معلقة على الحائط، فقال كأنه عثر على كنز:

– ها .. إنهم يصيدون الجمبري في هذه المنطقة.

وعقب كابتن بواسير الخبير بكل ما يتصل بالبحر والصيد قائلاً:

– نعم في الحقيقة هذه المنطقة تعتبر من أحسن مناطق صيد الجمبري.

وأردف مسيو رولاند قائلاً:

– ما رأيكم في جولة صيد بعد الغداء؟

وراقت الفكرة للجميع، وسألوا عن ظروف البحر، ووجدوا أن المد سينخفض في الساعة الثالثة، وقرروا أن يقضوا فترة بعد الظهر يصطادون الجمبري بين منطقة الصخور حيث يوجد بكثرة.

وعندما أحضر النادل طعام الغداء لم يقبلوا عليه بشهية مفتوحة لأنهم خشوا أن يصابوا بالغثيان إذا امتلأت معدتهم بالطعام وخرجوا يصطادون تحت أشعة الشمس الحارة.. كما أنهم أرادوا أن يحتفظوا ببطونهم شبه خالية حتى موعد العشاء حيث قد أمر جان أن يعد لهم عشاء فاخر عند العودة.

ومعروف عن مسيو رولاند أنه ضعيف أمام كل ما يتصل بالصيد.. ولذا فقد كان كالطفل الصغير الذي ما أن يرى شيئاً إلا ويود امتلاكه، ومنذ اللحظة التي رأى فيها شباك صيد الجمبري، حتى استحكمت في نفسه الرغبة في شراء إحداها.

وشباك صيد الجمبري تشبه إلى حد كبير الشبكة التي تستعمل في صيد الحشرات، وبها جيوب متداخلة، يصعب على الجمبري الذي يدخلها أن يخرج مرة ثانية، وقد أمدهم صاحب الفندق ببعض الشباك على سبيل الإعارة، كما قامت زوجته بمساعدة مدام رولاند ومدام روزيمللي على شمر ملابسهم حتى لا تبتل وهي يمارسون هوايتهم، كما أمدتهما بجوربين سميكين وصندلين من المطاط حتي لا تصطدم أقدامهما بما قد يؤلمهما. غادر الركب الفندق، والشباك في الأيدي، والملابس مشمرة، قاصدين البحر للصيد،

وكانت مدام روزيمللي تبدو فرحة لهذه التجربة التي لم تتح لها من قبل، وكان جان يسير إلى جوارها يرمقها بنظرات الإعجاب بين الحين والآخر.

ومنذ أن حصل جان على الثروة، كانت مدام روزيمللي تحتل جانباً كبيراً من تفكيره. هل يتزوجها أم لا، وكان في كل مرة يعقد عزمه على الزواج منها، ولكن ما أن يجلس بمفرده يقلب الأمور في روية، حتى يقرر ألا يتسرع، وأن يعطى نفسه مهلة أكبر للتفكير. إنها ليست أغنى منه الآن.. فدخلها السنوي لا يتجاوز الاثني عشر ألف فرنك، ولكن ثروتها لم تكن نقوداً سائلة أو أسهماً في البنوك، بل كانت استثمرتها في شراء مزرعة كبيرة قرب لوهافر ونظراً للارتفاع المتزايد في ثمن الأرض الزراعية فمن المؤكد أن تلك المزرعة تساوي الآن الكثير.. وهذا يعني أنها في مستوى متقارب من الغنى، كما أنه لا يوجد أدنى شك في أنه معجب بها ويجدها جذابة جميلة في ناظريه. وبينما هي تسير إلى جواره في ذلك اليوم.. قال لنفسه كأنه يغالب أي تردد قد يراوده.

– لابد أن أقرر رأيي بسرعة.. فمن المؤكد إني لن أجد أي امرأة تناسبني أكثر منها.

ووصلوا إلى الشاطئ، وكانت منطقة الصخور تمتد إلى ما يقرب من الثمانين متراً داخل البحر. ثم يبدأ بعدها العمق الذي لا يستطيع الإنسان أن يقف على قدميه فيه. ولما قاربوا الشاطئ وقبل أن يبلغوه بعدة أمتار، جرت مدام روزيمللي من جانب جان.. وخاضت لعدة أمتار في البحر وهي تضرب صفحة الماء بيدها في جذل وشمرت ملابسها حتى ظهرت ركبتاها كأنهما قطعتان من المرمر النقي.. وأحس جان وهو ينظر إليها أنها قد أسرت

فؤاده للنهاية، وتطلع إلى كعبيها الناعمين وباطن ساقها الأملس الأبيض، وقوامها الممشوق وشعرها المسدل.. ورجحت في التو كفتها عنده، وتمنى لو كانا بمفردهما الآن، لكي يعبر لها عن إعجابه ورغبته في الزواج منها بطريقة واضحة صريحة خالية من أي إحساس بالخجل.. أحس مرة أخرى أنه يقترب خطوة خطوة من قراره النهائي في موضوع الاقتران بها، وقرر ألا يتراجع بعد الآن، وأن ينتهز أي فرصة اليوم لكي يبوح لها بمكنون فؤاده.

وكان عليهم أن يتنقلوا بين الصخور حتى يصلوا إلى المنطقة الصالحة للصيد، ووقفت مدام روزيمللي فوق قمة إحداها وقالت وهي تجيل ببصرها في مختلف الاتجاهات. مستمتعة بمنظر البحر الذي لا تبلغ العين مداه في ناحية، ومنظر الخضرة الممتدة في الناحية الأخرى، واخذت نفساً عميقاً وقالت في إعجاب:

- ما أجمل المناظر في ذلك المكان.

وكان جان قد لحق بها، وأمسك بيدها ليساعدها على صعود الصخرة، وما إن لامست يده يدها حتى أحس بضربات قلبه تزداد، وود لو ينهال عليها تقبيلاً، ولكن طبيعته الخجول وأدت هذا الإحساس في نفسه بسرعة.. ثم وصل كابتن بواسير الذي حرص على أن يمد يده ليساعد مدام رولاند في تخطي الصخور وأخيراً وصل مسيو رولاند وبيير.

رأى جان على بعد ناحية اليسار على الشاطئ كوخاً صغيراً مصنوعاً من الخشب يجري أمامه جدول صغير من الماء العذب آت من داخل الأراضي الزراعية حيث يصب في البحر، ولفت نظر مدام روزيمللي إليه، وابتسمت

وقالت:

– هيا نسرع إليه.. فإني أشعر بالعطش.

ووجدها جان فرصة ليبتعد عن الآخرين، وساعد مدام روزيمللي على تخطي الصخور متجهين ناحية الكوخ. وعندما وصلا إلى جدول الماء قال جان:

– كيف ستشربين؟

وحاولت أن ترفع قدراً من الماء في راحة يدها، لتتمكن من إرواء ظمئها، ولكنه تسرب من بين أصابعها حتى أن كفها كانت فارغة تماماً عندما وصلت إلى فمها.. وكان جان واقفاً يرمقها في سعادة، وضحك، ونظرت إليه، وضحكت هي الأخرى، ولم تجد بداً من أن تركع وتدلي رأسها وتشرب من جدول الماء مباشرة، وشجعت التجربة بعد نجاحها جان ففعل مثلها.. ثم جلس بجوارها على حافة الجدول ونظر إليها في صمت وتأمل.

وانقضت لحظات من الصمت.. سألته بعدها قائلة:

– فيما تفكر؟

وأجاب قائلاً بدون تردد:

– فيك.

ودهشت من الإجابة وسرعتها وقالت!

– في أنا ؟ من أي زاوية كنت تفكر في؟

وأجاب قائلاً:

– ما أجملك!

وردت في لهجة المدرس الذي يؤنب تلميذاً على سلوك لم يرض عنه:

– هل لك أن تسكت؟

وكانت هذه المرة الأولى منذ أن تم تعارف آل رولاند مع مدام روزيمللى التي يحادث فيها جان الأرملة الحسناء وهما بمفردهما، وبتلك الطريقة الجريئة الصريحة.

ووصل إلى سمعهما صوت مسيو رولاند وهو ينادي لكي يعودا إلى البحر للصيد، وآثر جان أن يجربا حظهما في تلك المنطقة بعيداً عن الباقين، فقام من جلسته ومد يده لمدام روزيمللي ليساعدها على الوقوف، ثم خاضا في البحر مرة ثانية وفي يده شبكة الصيد.

وتشاغلت مدام روزيمللي بالحملقة في الماء محاولة العثور على أي أثر للجمبري الذي يكون في العادة مختبئاً بجوار الصخور الصغيرة الكثيرة المنتشرة في قاع ذلك الجزء من البحر.

وسألت جان كأنما تحاول أن تجعله يركز تفكيره في الصيد فقط:

– انظر جيداً إلى صفحة الماء. هل ترى شيئاً؟

وأجاب جان بنفس السرعة والهدوء – وإن كان قلبه يتراقص من الرغبة فيها والانفعال الذي يرد أن يخفيه عنها:

– نعم.. أستطيع أن أرى صورة وجهك وهي منعكسة على سطح الماء.

ولكنها ردت عليه في لهجة بها سخرية ممزوجة بالمزاح:

– إذا كان هذا هو كل ما تستطيع أن تراه.. فلن تصطاد شيئاً البتة.

ورد عليها قائلاً:

– إن هناك صيداً واحداً.. هو ما أهتم به، وهو الذي سوف يدخل السرور إلى قلبي لو اصطدته.

وضحكت وقالت:

– اغرس شبكتك في الماء إذن. فربما وقع لك ذلك الصيد الذي تعنيه.

وأمعن جان في التلميح لها بمقصوده وقال:

– إن الصيد الذي أعنيه سوف يدخل شبكتي إذا أردت أنت ذلك.

ومع أنها فهمت قصده، إلا أنها أرادت أن تتجاهل وقالت له:

- حسناً.. سوف أقول لجمبري البحر أن يدخل شبكتك حتى يدخل السرور إلى قلبك.

وأردفت جملتها بضحكة مجلجلة اغتاظ منها جان وقال:

- إن قلبك قاس.

وألقي بشبكته إلى الماء وصار يحركها بجوار الصخور وكانت مدام روزيمللي تتبعه بنظراتها، ثم فجأة صاحت مثيرة بإصبعها في فرح:

– انظر.. ها هي واحدة وأسرع باصطيادها.

وأسرع جان بالتقاطها بالشبكة، ثم أمسكها بيده وبينما هو ينظر إلى مدام روزيمللي في انتصار إذ قفزت إلى الماء بسرعة عجيبة وظلت يده مفتوحة وهو في دهشة من سرعة ما حصل، وجلجلت ضحكة مدام روزيمللي وقالت له:

– هذا درس يعلمك ألا تحاول أن تفعل شيئين في وقت واحد.

وضحك، وقال لها في دلة:

– إني لا أفعل سوى شيء واحد.. وهو إني أحبك

وزالت الابتسامة من فوق شفتيها وقالت في شبه تجهم:

– ماذا دهاك يا جان ؟ هل فقدت السيطرة على عقلك؟

وأجاب في إصرار:

– لا.. إني احبك.. ووجدت أخيراً الشجاعة لكي اعترف لك بهذا الحب.

وأطرقت، برهة، ثم قالت في لهجة فيها مزيج من الضيق والغضب:

– ولكنك أسأت اختيار الوقت المناسب لمثل هذا القول. أليس في مقدورك الانتظار إلى يوم آخر بدلاً من أن تفسد استمتاعي بالرحلة.

وتمتم قائلاً:

– آسف.. ولكني لم أستطع الانتظار أكثر من ذلك، لقد أحببتك منذ فترة طويلة ولقد أنذرني جمالك اليوم ففاض بي ولم أطق كتمان ما بنفسي.

وفجأة تخلت عن تجهمها وغضبها واكتسى وجهها بثياب الجدية عندما أحست بصدق عاطفته، وأمسكت بيده وقالت وهي تشير إلى صخرة قريبة مرتفعة بعض الشيء عن سطح الماء.

– دعنا نجلس قليلاً على هذه الصخرة ونتحدث في هدوء. وتسلقا الصخرة، وجلسا بجوار بعضهما البعض، وقالت مدام روزيمللي:

- يا عزيزي.. إنك لم تعد طفلاً بعد.. كذلك أنا.. لست الفتاة مراهقة صغيرة.. فدعنا نفكر في الموضوع من كل اتجاه ونزن كل النتائج.. فإذا كنت أتيت اليوم لتقول لي إنك تحبني، فإنني أفهم في التو أنك ترغب في الزواج مني.

وكان حديثها مفاجأة له.. ذلك أنه لم يكن يتوقع نقاشاً مباشراً صريحاً منها، ولذا فقد أجاب وهو يزدرد ريقه:

- طبعاً

وعادت تسأله:

- هل أخبرت والدك أو والدتك بأي شيء؟

وأجاب وقد زالت عنه مفاجأة حديثها:

- لا.. لأني أردت أن أعرف رأيك أولاً..

ومدت له يدها فاحتضنها بين كفيه وسرت في جسمه نشوة بالغة، وقالت له:

- إني أرحب بهذه الفكرة ولا أمانع في الزواج منك، ولا أجد فيك ما يعيب، لكن عليك أن تفهم جيداً، إني لا أريد أن أفسد علاقتك بوالديك.

ورد في حماس قائلاً:

- هل تظنين أن والدتي لم تلاحظ إعجابي بك وأنها لا تقل عني إعجاباً بك ولا ترحيباً بهذا الزواج؟

وقالت له هامسة:

– إن والدتك تحبني حقاً.

وسادت بينهما لحظات من الصمت، لقد أدهشه قبولها السريع المفاجئ له، وهو الذي توقع منها التمنع المليء بالرغبة، والرفض الذي يعني القبول وتمنى أن يلعبا لعبة الحب الذي يطارد حبيبته التي تتأبى عليه وتتمنع لتزيد رغبته فيها، وإصراره على الحصول عليها، لقد تم عرض الحب، والموافقة على الزواج في جملتين أو ثلاثة.

ولم يعد هناك ما يقال لأنهم لم يضعوا أية عقبات في طريقهما.. عرض موجز وقبول سريع، فماذا يقول لها الآن، وماذا تقول له؟ وفي هذه اللحظة يأتي إلى سمعهما صوت مسيو رولاند من بعيد يدعوهما للانضمام إليهم، وعندما وصلا قال "رولاند" في فرح:

– أين كنتم، تعالوا وانظروا ماذا فعل كابتن بواسير، لقد أفرغ البحر تماماً من الجمبري.

وكانت سلة الكابتن فعلاً مليئة بالجمبري الذي كان يصطاده بكل مهارة.

ولاحظت مدام روزيمللي أن مدام رولاند لم تكن معهم، بل كانت جالسة على الشاطئ وكذلك بيير وإن لم يكن في نفس المكان الذي كانت جالسة فيه بل على بعد خطوات منها كانت خائفة منه، وكان هو أيضاً خائفاً منها، وكانت تتحاشى أن تتكلم معه لعلمها أن رده عليها سيكون عنيفاً، كما أنه كان يتحاشى الحديث معها لأنه كان يخشى أن يوجه لها – على الرغم منه كلاماً جارحاً.

كان بيير يجلس في مكانه على الشاطئ ينقر بعصاه فوق الرمال الناعمة

برسم بها أشكالاً ثم يهدمها ويرسم غيرها.. وكان عقله يروح ويجيء كموج البحر، يفكر في نفسه وفي أمه، أنه يحبها ويكرهها، يود لو يصفعها، وفي نفس الوقت تراوده الرغبة في تقبيلها، وهي كانت تتجنب النظر إليه. وكانت تحس أن نظراته لا تخلو من تقريع لها، وتأنيب، وعذاب، ولذا فقد تشاغلت بالنظر إلى البحر، ورأت ابنها الآخر جان وهو يحادث مدام روزيمللي وألهمتها غريزة المرأة أن هذا الحديث ليس حديثاً مادياً، بين رجل وامرأة ولحظ بيير ذلك أيضاً وضحك ضحكة جافة لم تستطع الأم أن تتجاهلها فقالت له:

- ماذا دهاك؟

وأجاب:

- إني في دهشة من أنك ترين العيب ولا تنتقدينه.

وأحست كأنه صفعها، وحاولت تجاهل معنى كلامه وقالت:

- لمصلحة من تقول هذا القول.

- لمصلحة جان بالطبع.

وتمتمت الأم في صوت خافت، ولكنه مشحون بالانفعال:

- يا لك من قاس في حكمك على الأشياء. وإن سلوك مدام روزيمللي على ما يرام. ولن يجد جان خيراً منها ليتزوجها.

وضحك في عصبية وهو يقول:

- سلوكها على ما يرام، ها ها، إن كل النساء هكذا. سلكوهن على ما يرام. وأزواجهن حمير مغفلون، ها ها.

وبدون أن تنبس بكلمة نهضت من مكانها وسارت فوق الصخور لتلحق بابنها الآخر جان وباقي الجماعة، وعندما قاربت الوصول إليهم صاح جان بها مرحباً:

- ها أنت قد قررت الانضمام إلينا في النهاية يا أماه.

وبدون أن تتكلم، اقتربت منه أكثر، وأمسكت في ذراعه كأنها تود أن تصرخ بكل قوتها:

–أنقذني من أخيك، أحمني يا جان

ولاحظ جان اضطرابها فقال في جزع:

– إنك تبدين شاحبة يا أماه.. ماذا بك؟

وأجابت في صوت واهن:

–لا شيء يا بني، حالة بسيطة لن تلبث أن تزول.

واستندت إلى ذراع ابنها الذي اصطحبها بعيداً عن البحر، ووصلا إلى الشاطئ وقدماها لا تكادان تقويان على حملها، وقال لها ليسري عنها:

– هل علمت ماذا فعلت يا أماه؟

وأجابت:

– لا أعرف..

وأردف جان يقول:

– لقد طلبت من مدام روزيمللي أن تتزوجني.

ولم تقل له شيئاً. كانت رأسها أشبه بطبلة كبيرة كثر الدق عليها حتى تصبح الدوي وكأنه يملأ كل الدنيا، ولم تعد قادرة على التفكير في أي شيء.

ولما أعاد عليها جان الخبر قالت له كأنها تفيق من غفوة:

– تتزوجك؟

وأجاب جان في لهفة:

– نعم، هل أحسنت الاختيار، هل تستحق أن أتزوجها؟

وأجابت مدام رولاند في استسلام:

– نعم نعم يا ولدي، إنها جذابة، ومناسبة لك.

وغمرت السعادة نفس جان، وسأل في فرح:

– هل توافقين إذا؟

وأجابت الأم ..وكانت تتكلم في صوت ضعيف لا يحمل أي أثر للسعادة.

فقال جان:

– ما لك تتحدثين كمن لم يسره الخبر؟

أجابت الأم:

– بالعكس يا ولدي.. إني مسرورة مسرورة جداً.

– حقاً.

– نعم، وبصدق.

ولكي تقنعه بصدق فرحتها، تحاملت على نفسها، وطوقت عنقه بذراعيها وطبعت على وجهه قبلة طويلة بثت فيها كل عاطفة الأمومة.وعندما جففت عينيها من الدموع التي ملأت مآقيها، ورأت عن بعد شخصاً مستلقياً على رمال الشاطئ.. وندت عنها تنهيدة عميقة. واستراحت على الشاطئ قليلاً ومعها جان الذي لم يكف عن حديث السعادة بالزواج المنتظر، ثم قاما ليلحقا بقية الجماعة المنهمكين في صيد الجمبري.

وعندما ابتدأ المد في الارتفاع، عاد الجميع إلى الفندق وتناولوا العشاء وغسلوا تعب اليوم بكثير من زجاجات النبيذ.

الفصل السابع



ركب الجميع العربة مرة أخرى، وانطلقت بهم في رحلة العودة وكان الجهد والسفر قد أنهكهم، ولذا فقد غطوا جميعاً في النوم وهم داخل العربية ما عدا جان. وكان مسيو رولاند وكابتن بواسير أكثر الراكبين إغراقاً في النوم، يميل أحدهم على كتف جاره ويحسبه حشية لينة، ثم لا يلبث الشخير أن يتصاعد، فإذا تبرم الجار من نقل الرأس وصوت الشخير وتخلى بجسمه عن الرأس النائمة فإنه يستقل هنيهة: تسمم دون داع ويقول لسارة دون معنى، ثم يسند رأسه على أقرب كتف له، ويتعالى الشخير مرة ثانية.

وصلت العربة إلى لوهافر واعتذر كابتن بواسير عن تلبية دعوة جان للتوجه معهم جميعاً إلى الشقة الجديدة لتناول الشاي الذي سبق الاتفاق عليه، ولذا فقد نزل عند ميدان شارع باريس ليتوجه إلى منزله، بينما واصلت العربة سيرها حتى وصلت أمام المنزل الذي تقع فيه شقة جان.

كان من المقرر أن يبيت جان أولى لياليه في الشقة، حيث أنه كان يكتفي قبل اليوم بقضاء معظم النهار بها، ثم يتوجه إلى منزل الأسرة ليتناول العشاء، ثم ينام هناك، ولقد رغب بعد ذلك، لكي يتعود أكثر على حياته الجديدة – أن يقضي من حين إلى آخر بعض لياليه في مسكنه الخاص حتى يتعود على حياة الاستقلال.

وفي هذه الليلة داخله إحساس بالسرور لأن مدام روزيمللي قبلت الدعوة لمصاحبتهم، وتناول الشاي هناك، ووجدها فرصة ليرى خطيبته. وقد أصبح يعتبرها منذ لحظات الاعتراف والقبول لخطيبته – شقته الجديدة، التي ستشاركه فيها عندما يتم زواجهما.

ولم يكن مسيو رولاند ولا بيير قد زارا الشقة من قبل، ولذا فقد انتظرا برهة في الظلام في البهو الصغير في مدخل الشقة ومعهما مدام رولاند ومدام روزيمللي ريثما دخل جان بسرعة وأضاء المصابيح والشموع وفتح الأبواب كلها حتى يستطيعوا أن يشاهدوا الغرف وما بها من أثاث وتحف أتعب نفسه هو ووالدته في انتقائها، ثم صاح فيهم منادياً:

– هيا أدخلوا

وكانت الشرفة ذات الجدران الزجاجية التي تطل على البحر مضاءة بمصباح كبير تحيطه بعض قطع الزجاج الملون التي ينعكس الضوء عليها فتلألأ كأنها قطع الماس، وقد تناثرت في أركانها أصص الأزهار والورود، وتسلقت على بعض جدرانها فروع من شجر الياسمين المحملة بزهره الأبيض الجميل، فبدت الشرفة كأنها جزء من ديكور أجهد فنان نفسه في إعداده، ولم يتمالك مسيو رولاند من الصياح قائلاً "يا إلهي" معبراً عن إعجابه البالغ بروعة

للمكان وفخامة الأثاث الذي رص فيه، وبدت الفرحة في عينيه، وصار يجري بناظريه على كل قطعة أثاث مبدياً دهشة وإعجاباً بل ومديحاً للذوق الذي انتقى تلك المجموعة الفريدة المتناسقة من الأثاث.

ثم توجهوا بعد ذلك إلى غرفة المكتب، وكانت صغيرة كسى أثاثها بماء الذهب، فبدت كأنها جزء من قصر ملكي به روعة الملك، وبهاء السلطان، أما الغرفة التي خصصت لمقابلة العملاء فبدت بسيطة وإن كان أثاثها غالياً تشيع ألوان جدرانها الراحة في نفوس المشاهدين وكان يوجد بها مكتب كبير وضع بجواره دولابان زجاجيان حملت أرففهما بالكتب الضخمة، والمراجع القانونية المشهورة، بينما وضعت أمام المكتب بعض المقاعد المريحة الفخمة.

جليس جان أمام مكتبه، وأسند منكبيه على جانبي الكرسي الدائري ثم تصنع الجد وقال مازحاً كأنه يخاطب إحدى العميلات:

- نعم يا سيدتي. فالوقائع ثابتة وما بينته لك من حجج وما كشفته لك من نصوص القانون، كفيل بأن يجعل الحكم في صالحنا فاطمئني، ونظر إلى مدام روزيمللي التي ارتسمت على وجهها ابتسامة عريضة ونظرت بدورها إلى مدام رولاند، التي بادلتها الابتسام وأمسكت يدها وربتت عليها في حنان.

قفز جان من مقعده وقال في لهجة فرحة صبيانية:

- إن صوتي خلق ليجلجل في المحاكم، أليس كذلك. إن هذه الحجرة ستشهد أمجاداً كثيرة لي.

واعترته نوبة من الخطابة، فبدأ يقول:

- إذا كانت الإنسانية وحدها.. وإذا كان إحساس العطف الذي ينتابنا كلما رأينا أحداً يقاسي ألماً.. إذا كان هذا هو سندنا لكي نطالب بالرحمة، ولكي نلجأ إلى مراحمكم يا حضرات السادة والسيدات

أعضاء هيئة المحلفين باعتباركم آباء وأمهات، لكم قلوب مرهفة بالإحساس، لكان هذا كافياً، فما بالكم والحق أيضاً في جانبنا.أي أننا نستند إلى الحق وإلى الرحمة.

كان بيير ينظر إلى غرف الشقة وإحساس بالضيق يعتمل في نفسه، كان يمكن أن تكون هذه الشقة ملكه، ولكن ها هو جان يستأجرها لنفسه، وها هو يتظاهر بالظرف، ويمثل كما لو كانوا في سرك فاشل.

فتحت مدام رولاند باباً على اليمين يقود إلى غرفة أخرى وقالت:

– ها هي غرفة النوم.

وكانت قد وضعت كل حنان الأمومة في اختيار أثاث تلك الغرفة واللوحات التي زينت جدرانها، حتى أن مدام روزيمللي صاحت في دهشة عندما رأتها:

– يا لها من رائعة.

وأثلج هذا الإطراء قلب جان، فاقترب منها وسألها في رقة:

- هل أعجبتك؟

وأجابت بسرعة وفي تأكيد:

– جداً.

وعقب في نبرة محملة بالحب والفرح:

– لو تعلمين مقدار سعادتي عند سماعي قولك هذا!

وتبادلا نظرة خاطفة، فيها معنى مشترك، هو الإحساس بالثقة وبالحب

الذي أصبح يكنه أحدهما للآخر. ونظرت إلى السرير مرة ثانية وداخلها إحساس بالخجل ، لأن ذلك السرير، المقدر له أن يكون سرير عرسها أصبح محط أعين الآخرين.

نفس الإحساس الذي بداخل المرأة لو رأى أحد ملابسها الداخلية ولو وهي معلقة على حبل الغسيل! ولم يكن من الصعب عليها أن تلاحظ أن السرير لم يصنع لشخص واحد، وإنما كان عريضاً، انتقته مدام رولاند بلاشك وهي تتمنى أن يضم بالإضافة إلى ابنها من سيختارها لتقاسمه الحياة! وداخلها إحساس بالسعادة.. لأنها شعرت بأهميتها وبأنها كانت محل تفكيرهم من قبل.

عندما عادت الأسرة، وضيفتها إلى غرفة الجلوس، مد جان بده وفتح باب يقع على الناحية اليسرى وظهرت أمامهم حجرة الطعام المستديرة، ذات الثلاث نوافذ المحلاة ستائرها برسوم صينية بديعة. لقد وضعت الأم والابن كل خيالهما في تزيين هذه الحجرة فبدت بأثاثها المصنوع من خشب البامبو، وتحفها المصنوعة من البورسلين النقي، وستائرها المصنوعة من الحرير المطرز بخيوط الذهب والمراوح المعلقة في سقف الحجرة، وأطقم كؤوس الشراب المصنوعة من البللور النقي والموضوعة على أرفف أنيقة مثبتة على أحد الجدران.. كل شيء في الحجرة كان يوحي بسلامة الذوق وحسن الاختيار، وأبدى مسيو رولاند ومدام روزيمللي إعجابهما الشديد بكل ما رأوه، أما بيير، فلم تخل آراؤه من بعض الانتقادات الساخرة التي جرحت إحساس جان.

وعلى المائدة التي كانت تتوسط غرفة الطعام، رصت كومة كبيرة من

أنواع الفاكهة الشهية الغالية وأطباق كثيرة احتوت على بعض أنواع الحلوى ولم يكن طعام الرحلة قد هضم بعد، ولذا فقد كان إقبالهم على الفاكهة والحلوى قليلاً.

وبعد مضي ما يقرب من الساعة، استأذنت مدام روزيمللي في الانصراف وصمم مسيو رولاند على مصاحبتها حتى باب منزلها تاركاً زوجته قليلاً لتطمئن على أن شيئاً لا ينقص جان:

وسألها مسيو رولاند:

– هل تودين أن أعود لاصطحابك إلى المنزل يا لويز؟

وترددت قليلاً، ثم قالت:

– لا يا عزيزي، لا داعي لتعبك، سوف يصحبني بيير إلى المنزل.

وعندما انصرف مسيو رولاند ومدام روزيمللي قامت مدام رولاند بإطفاء الشموع ورفع أطباق الحلوى والفاكهة والملاعق والأطباق وتنظيف المائدة، حيث أن الخادمة كانت قد انصرفت لتأخر الوقت. ثم اتجهت مدام رولاند إلى غرفة النوم، وملأت دورقاً بالماء وضعته على مائدة صغيرة بجوار السرير، حتى إذا ما رغب جان في الشرب أثناء الليل فإنه لا يتكلف مشقة الخروج إلى المطبخ، وتأكدت بنفسها أيضاً من أن النوافذ مغلقة، وأن الستائر محكمة.

وبينما كانت مدام رولاند تقوم بهذه الأعمال، جلسن جان وبيير في غرفة المكتب الصغيرة، وبينما كان جان لا يزال متضايقاً من انتقاد بيير الساخر لأثاث الشقة، فإن بيير نفسه كان متضايقاً أيضاً من ملكية جان

للشقة التي ود منذ البداية أن تكون له. ولذا فقد جلسا صامتين كل يدخن سيجارة دون أن يتبادلا أية كلمة.

وفجأة نهض بيير من مكانه وقال في ضيق:

يا إلهي.. كم كانت الأرملة ثقيلة الظل هذا اليوم.. إن الرحلات لا تناسبها أبداً..

وتولى جان غضب شديد، وقال موجهاً الكلام إلى بيير في أسلوب تهديدي:

– إني أمنعك بعد الآن أن تتفوه بكلمة "الأرملة" عندما تتحد عن مدام روزيمللي.

ونظر بيير إلى أخيه في استعلاء وقال في سخرية:

– إنك تخاطبني كمن يلقي علي أمراً، هل فقدت عقلك لتحادثني بهذه الطريقة.

ورد جان قائلاً:

– لم أفقد عقلي، ولكن سلوكك معي أصبح لا يحتمل! وازدادت سخرية بيير وهو يقول:

– سلوكي معك! هل أنت جزء من مدام روزيمللي حتى تغضب لها هكذا!

وأجاب جان:

– لك أن تعرف أنها ستصبح زوجتي عما قريب.

وندت عن بيير ضحكة مدوية وهو يقول:

– آه، عظيم، لقد فهمت الآن لم لا يجب أن أقول عنها كلمة "الأرملة".

ثم أردف في سخرية:

– ولكنها طريقة عقيمة لإعلان الخطبة يا عزيزي.

ولم يستطع جان أن يكبح جماح غضبه أكثر من هذا فاقترب من بير وقد تغير لونه، وتقلصت عضلات وجهه واعترته رعشة وهو يقول في تهديد:

– إني أمنعك من أن تمزح على ما أقول، هل تفهم؟ إني أمنعك.

وانتقل تيار الغضب من جان إلى بيير. وكأنما لاحت لآلامه التي كابدها منذ مدة، وتوتره الذي نغص عليه حياته، ويأسه وحيرته، وخيبة أمله في طهارة والدته.. فرصة للتنفيس. ولذا فقد استحال وجهه إلى كتلة من الغضب وهو يقول لأخيه كالمحموم:

– كيف تجرؤ على مخاطبتي هكذا، أخرس، هذا أمر.. هل تفهم؟

وفوجئ جان بغضبة بيير، وصمت برهة، ثم قال لبيير:

– إني على يقين من أن الغيرة تعمي بصيرتك من ناحيتي.

وضحك بيير ضحكة عصبية مجنونة وهو يقول:

– ها ها، يا لطرافة ما تقول! أنا غيور منك! غيور منك أنت! لماذا؟ قل لي بحق السماء لماذا؟ من ملاحتك أم من رجاحة عقلك؟

وأحس جان انه قد آدمي جرحاً خفياً في قلب بيير ولذا فقد استمر يضرب على نفس الوتر ويقول:

- نعم. أنت تغار مني. تغار مني منذ كنا طفلين، ولقد استشاط بك الغضب عندما اكتشفت أن مدام روزيمللي تفضلني عنك، وأنها لا تلقى إليك أي اهتمام.

وقال بيير في سخرية:

- أنا أغار منك، من أجل تلك المرأة التافهة.

ورد جان في تحد:

- لقد كنت تحاول باستمرار أن تبدو أمامها مهماً، ولكنك فشلت في جذب انتباهها. إن الغيرة تعتمل في صدرك. وعندما جاء خبر الوصية كاد عقلك أن يذهب! ولم تضيع أية فرصة للنيل مني منذ ذلك اليوم. إنك كرهتني منذ أن فزت بالثروة، وانعكست كراهيتك على تصرفاتك ولم تعد قادراً على إخفائها.

وكور بيير قبضة يده، واعترته رغبة جنونية في توجيهها بكل قوة إلى وجه أخيه وإلى أن يطبق بكلتا يديه على رقبته وحتى يزهق روحه، ولكنه تمالك نفسه وقال:

- بحق السماء.. لا تذكر أية كلمة عن هذه الوصية المشؤومة.

ولكن جان استمر قائلاً:

- إن الغيرة تنضح من كل مسام جلدك الكريه، إنك لم تقل لي أو

لوالدي أو لوالدتك أية كلمة لا تحمل إحساس الكراهية والغيرة إنك تتظاهر باحتقاري لأنك تغار مني، إنك تحاول أن تتشاجر مع الجميع، لأن الغيرة تكاد تمزق قلبك. وعندما أصبحت غنياً، لم تعد تحتمل أنت، واتجهت بكل قوتك محاولاً مضايقة والدتنا كأنها هي المسئولة عن هذه الوصية.

وتراجع بيير بضع خطوات.. وفتح فمه كالمشدوه، والتمعت عيناه ببريق الغضب الذي يمكن أن يؤدي إلى حد ارتكاب الجريمة وعندما سمع ذكر أمه قال وهو يعض على نواجذه بقوة:

– اخرس، اخرس، قلت لك أخرس!

ولكن جان استمر قائلاً:

– لا، لن أسكت، كنت أود أن أقول لك هذا منذ مدة.

– وها أنت قد أعطيتني الفرصة التي كنت أريدها.. هذا من سوء حظك، إني أحب امرأة، وأنت تعلم ذلك جيداً، ولكنك تعمدت الإساءة إليها أمامي. ولكني سأجبرك على احترامها واحترامي ولو أدى ذلك إلى تكسير أسنانك.

وقال بيير في سخرية:

– احترمك أنت!

– نعم

– أحترمك أنت وقد تسببت في جلب العار علينا جميعاً.

وكاد جان أن يجن وصاح في وجه أخيه قائلاً في حنق:

– ماذا قلت؟ كرر ما قلته مرة ثانية!

– أقول أنه لا يجب على المرء أن يقبل ثروة رجل، عندما يظن أنه ابن رجل آخر!

وتجمد جان في مكانه، لم يفهم جيداً ما يعني بيير، وإن كان قد أحس به ولذ فقد قال له:

– ماذا تعني بحق السماء.. قل ذلك مرة ثانية.

وقال بيير:

– إني أقول ما يتهامس به كل الناس وما يرددونه من خلف ظهورنا، وهو إنك ابن الرجل الذي ترك لك ثروته، وكل ما أود أن أضيفه الآن هو أنه لا يوجد شخص يحترم نفسه، يقبل مثل هذه الثروة التي تجلب العار لوالدته.

وصاح جان كالمجنون:

- بيير، بيير.. إنك لا يمكن أن تقول هذا، إن الشيطان نفسه لا يجرؤ على توجيه مثل هذا القول لي.

ولكن بيير أجاب في إصرار:

– ألم تلاحظ مبلغ حزني وهمي في الأيام الأخيرة! ألم تلاحظ مبلغ ألمي إلى حد عدم قدرتي على النوم، أو الراحة، أو حتي الحياة، كنت أقضي النهار بعيداً عن الناس كالمنبوذ، لم أكن أدري ماذا أفعل، ولا ماذا أقول، ولا ما سيحل بي.. كنت ممزقاً بين الحزن والألم والشك إلى أن تيقنت من صدق شكوكي.

واستحال غضب جان إلى رجاء وهو يقول:

– بيير، أرجوك، إن والدتنا في الحجرة المجاورة، تذكر أنها استطيع أن تسمع ما نقول، إنها ربما سمعت كل كلمة قلتها الآن.

ولكن بيير كان مصمماً على أن يزيح العبء عن كاهله ويفرغ كل ما جثم فوق صدره منذ أسابيع. ولذا فقد استمر يحكي شكوكه، وآلامه التي نتجت من هذه الشكوك ومحاولته وادها في صدره، ثم البراهين التي ساعدت على تثبيت الشك، ثم حكاية الصورة وما صاحب رؤيتها من ملابسات.

وكان يتكلم في جمل لاهثة قصيرة كشخص محموم يهلوسن أثناء المرض وكان يبدو أنه تناسى وجود جان، ووجود والدته في الحجرة المجاورة، ولذا فقد انطلق يتحدث، ويتحدث، ويجد في الكلام راحة، كأن السر الذي تحمل وحده عبء الحفاظ عليه منذ أسابيع، اصبح كالدمل المؤلم، الذي يزيد تورماً يوماً بعد يوم وها هي ذي لحظة الانفجار، وكلما أخرج إفرازاته كلما أحس ببعض الراحة.

بينما وقف جان وهو في حالة انهيار تام، وقد أسند رأسه إلى الباب الذي ظن أن والدته خلفه، كأنه يريد أن يمنعها من الدخول، وكانت كلمات أخيه المنفعلة كالمسامير المدببة التي تثقب إذنيه، وتستقر في باطنه تدمي كل جزء فيه، ولم يشك في صدق الاتهام لشدة انفعال بيير التي تبعده عن كل تصنع أو تمثيل.

وانتهى بيير من الكلام.. وصمت برهة ثم بدأ كمن يفيق من كابوس مزعج، وأدرك مدى بشاعة ما قال في سورة غضبه، ولذا فقد قال في تأنيب ذاتي وفي جزع واضح..

- يا إلهي.. كيف قلت كل هذا؟

واندفع من الغرفة خارجاً دون أن يضيف أية كلمة، كالمجرم الذي يهرب من مسرح الجريمة، أو المذنب الذي لا يريد أن تقع عيناه على ضحاياه!

وأيقظت صفقة الباب الخارجي جان من وقفته المذهولة، ومرت لحظات أخرى، ولكنها بدت كالساعات الثقيلة، أحس كأن هناك غشاوة على عقله تمنعه من الرؤية السليمة للأمور.

وخر جالساً على أحد المقاعد، وبالرغم من علمه بأن عليه أن يقوم ويتصرف، ويواجه الموقف، ولكنه كان يؤجل هذا الموقف دقيقة بعد دقيقة، لشعوره بالخوف، والجبن، والضعف.. من مضاعفات هذا الموقف. بل إنه كان لا يود أن يتذكر كلمات أخية ولا أن يحللها ويتفهم معناها جيداً. ولكن السكون المطبق الذي شاع في الشقة عقب خروج أخيه، ذلك السكون الأخرس المثير وطنين كلمات بيير المحمومة أعملتا عقل جان وبعثتاه إلى التفكير.

يا له من موقف صعب يواجه جان.. أصعب ما مر به في حياته بالتأكيد. إذ لم يسبق له من قبل أن مر بأي موقف أو مشكلة جادة. وهناك نوع من الناس تمر حياتهم في دعة، وسهولة، وكان جان من هذا النوع. في أيام المدرسة كان يذاكر، لا حباً في المذاكرة ولكن خوفاً من العقاب، وأتم دراسته الجامعية في القانون دون عقبات لأن حياته لم تكن بها ما يقلقها. وكان ينظر إلى أي شي في الدنيا على أنه شيء طبيعي، ولذا فلم يكن يهتم بأي شيء، كان يميل إلى الهدوء والدعة، والرغبة في المسالمة، ولكن ها هو

يواجه مصيبة؛ فاصبح كالشخص الذي يقع في جب دون أن تكون لدية أية دراية بالسباحة.

بدا جان تفكيره بمحاولة الشك في صدق كل ما سمع، فمن الجائز أن يكون بيير قد كذب مدفوعاً بكراهيته له، وغيرته منه، لكن اتصل به درجة الكراهية والغيرة إلى حد الافتراء الشنيع! وحركاته وتقلصات وجهه، وآلامه التي كانت تخرج من كل كلمة قالها لا زالت ماثلة أمام جان، ومن الصعب رفضها، وعدم تصديقها وأحس جان بالتمزق، بين الشك والحقيقة، حتى أنه أصبح عاجزاً تماماً عن الحركة واتخاذ أي قرار. وغمره يأس قاتل، وأحس كأن نصلاً حاداً غرس في قلبه عندما تذكر أن والدته ربما تكون قد سمعت كل ما قاله بيير.

ترى، ماذا تفعل هي الآن، إنه لا يسمع أية حركة أو صوت يند عنها، ولا حتى صوت تردد الأنفاس أو التنهدات. هل هربت؟ لكن إلى أين؟

وإذا كانت قد هربت، فلابد وأنها قد تسلقت النافذة إلى الشارع حيث لم يرها تجتاز ردهة الباب الخارجي.

واعترته رعشة خوف جعلته يتنبه إلى نفسه. فقام مسرعاً ودفع الباب الموصل إلى غرفة النوم لعله يجدها.. ولكن الغرفة كانت خالية، تضيئها شمعة واحدة خافتة وضعت فوق صوان الملابس في ركن الغرفة. واندفع جان إلى النافذة، ولكنها كانت مغلقة، بل ومحكمة الإغلاق أيضاً.

واستدار إلى الستائر التي تغطي السرير وكانت مسدلة فأزاحها ولدهشته. وجد والدته راقدة على وجهها فوق السرير وقد دفنت وجهها في الحشية وغطت بها أذنيها حتى لا تسمع أي شيء..

وانتابه الرعب، وظن أنها ماتت، ولكنه عندما قلبها من كتفها تمسكت بالحشية التي كانت تقبض عليها في استماتة، وكانت تعض عليها بأسنانها، حتى تمنع صراخاً ودت لو أطلقته ليجلجل في سكون الليل المطبق، وكانت تسري في جسمها رعشة تهتز لها كل خلية في جسمها لتعبر عن الألم المكبوت الذي يعتمل في كيانها ولم يعد يحتمل رؤية هذا المنظر.. لقد حز في نفسه إلى آخر درجة أن يرى أمه في هذا الوضع القاسي هذا الألم، وفي إصرارها على دفن رأسها في الحشية حتى لا ترى ولا تسمع أحداً، جعل قلبه يهتز من الشفقة عليها، ولم يعد ينظر إليها كأنه قاض، ينظر إلى متهمة، حتى ولو كان قاضياً عادلاً، لا، بل ابن تمزق قلبه لمرأى أمه تتعذب وتقاسي وتهتز من وقع الصدمة، ولم يعد يتذكر أي شيء مما قاله بيير، لم يعد يرغب في المناقشة أو في منطقة الاتهام، بل اقترب من أمه كالعابد الناسك الذي يقترب من أيقونة العذراء، ولمسها بيده في رجاء وقال في صوت كله توسل:

– أماه.. انظري إلي.. انظري إلي يا والدتي المسكينة!

ولم يسمع جواباً.. كل ما أحسه إنه ألقى برأسه على جسمها، وأحس بالرعشة تنتقل إليه منها، فكادت أوتار قلبه تتمزق..

وقال كالمنتحب:

– أماه.. أصغي إلي.. أن ما قاله بيير غير حقيقي.. أنا أعلم أنه غير حقيقي فلا تبتئسي هكذا.

وانتابتها قوية من التشنجات العصبية استمرت دقيقة، ثم انفرجت أسنانها عن الحشية، وبكت في حرقة.. ثم هدأ البكاء توترها.. واختفت

رعشة جسمها، وارتخت أصابعها التي كانت تقبض بها على الحشية وأزاحتها والتفتت إليه برأسها أخيراً.

كانت مصفرة كالأموات، وشفتاها مبيضتان، والدموع تتفجر من جوانب عينيها اللتين كانتا لا تزالان مغمضتين حتى الآن. طوق جان رقبة والدته بكلتا يديه وقبلها فوق عينيها المغمضتين، فتبللت شفتاه بالدموع، وقال لها:

- أماه.. يا أمي العزيزة.. أنا متأكد أن ذلك كله محض افتراء ، فلا تبك.. إنه كاذب.. أنا أعلم هذا.

وفتحت عينيها.. ونظرت إليه، ثم قامت من رقدتها وأسندت رأسها على حافة السرير واستنجدت بكل ما أوتيت من شجاعة. تلك الشجاعة التي يحتمي بها الإنسان عندما تتملكه الرغبة في الانتحار.. وقالت:

– لا يا بني، لقد قال الصدق.

ونظر إليها.. وظلت ناظرة إليه ولم ينطق كلاهما بكلمة؟ واعترتها نوبة التشنجات مرة أخرى.. وأحست بضيق في انفاسها، وصارت تحرك يدها على رقبتها كمن يرغب في التخلص من الحياة وعندما هدأت النوبة وسيطرت على نفسها استمرت تقول:

– إن ما قاله بيير حقيقي يا بني.. ولا فائدة من الإنكار.. ولن تصدقني أنت لو ادعيت أنا كذباً أمامك الآن.

كانت تبدو كامرأة مجنونة، غلبها الرعب، ونظر إليها وتغلبت شفقته على قوة الاعتراف وصراحته.. وخر بجوار السرير ووضع وجهه في ملامسة ركبتها وتمتم قائلاً:

– اهدئي يا والدتي.. هدئي نفسك..

ولكنها لم تهدأ، بل نهضت ووقفت في قوة وتصميم وقالت له:

– لم يعد لي شيء هنا يا بني.. وداعاً.

ومشت في اتجاه الباب، ولكنه لحق بها وطوقها بذراعيه وصاح كالمستنجد:

– ماذا أنت فاعلة.. إلى أين تذهبين؟

وردت عليه كالمذهولة:

– لا أعرف.. وكيف لي أن أعرف. لم يعد لدي ما أفعله.. أنا وحيدة الآن في هذه الدنيا.

وحاولت التخلص من ذراعيه، ولكنه تمسك بها وأخذ يصيح في يأس وحب وألم كالطفل يبكي عندما يتخيل أن والدته ستتركه:

- أماه.. أماه.. أماه..

وقاطعته قائلة:

– لا تقل أماه.. فأنا لم أعد أمك.. أنا لا شيء بالنسبة لك وبالنسبة للآخرين أيضاً. لا شيء بالمرة.

ثم نظرت إليه والدموع تتساقط من عينيها ساخنة وقالت:

– يا ولدي المسكين! لم يعد لك أم.. ولا أب.. وداعاً.

وأدرك بسرعة أنه لو تركها تذهب فلن يراها بعد ذلك مطلقاً، ولذا فقد حملها عنوة وأجلسها على أحد المقاعد وعاد وطوقها بذراعيه وهو يقول:

– لن تغادري هذه الشقة يا والدتي.. أنا أحبك، ولا أطيق البعد عنك، ولن تبتعدي عني مطلقاً.. إنك لي.. وستبقين لي.

ولكنها ردت في صوت كسير:

– لا.. لا يا ولدي المسكين، لم يعد هذا ممكناً. قد تكون مدفوعاً بالشفقة الآن.أما غداً.. فستقذف بي إلى عرض الطريق. كما أنك لن تغفر لي زلتي أبداً.

ولكنه قاطعها قائلاً – وقد فاضت عاطفة البنوة في نفسه:

– أنا يا أماه؟ إنك لا تعرفيني كثيراً إذن.

ولم تتمالك المرأة نفسها، فجذبته نحوها.. وغمرت وجهه تقبيلاً بثته عاطفة الأم اليائسة المستسلمة الذليلة.. وقالت له:

– يا صغيري جان إنك تظن أنك غفرت إلى الآن.. ولكن غداً أو بعد عدة أيام.. عندما يتجدد تفكيرك سوف يتغير إحساسك عما هو عليه الآن. إنك غفرت لي الليلة، وتمسكك بي الآن أنقذ حياتي.. ولكن لا يجب أن تراني بعد ذلك.

ورد جان وهو يحتضنها:

– أماه.. لا تقولي هذا..

ولكنها استطردت قائلة:

– نعم يا ولدي. يجب أن أرحل بعيداً عنكم، وليست عندي أدنى فكرة عن أين سأذهب وكيف، ولا كيف سأواجه الناس.. ولكن من الضروري أن أرحل. لن أستطيع بعد الآن أن أنظر إلى وجهك، ولا

أن أقبلك.. هل تفهم ما أعني؟

ولكنه ازداد التصاقاً بها، وهمس في أذنها في لهجة صارمة صادرة من أعماقه:

– سوف تبقين معي، لأني أحتاج إلى وجودك، وأتمسك به. ولسوف تقسمين لي الآن على أنك سوف تبقين معي.

وردت بسرعة:

– لا يا ولدي.

وأوشك أن يبكي وهو يقول:

- بل يجب يا أماه.. يجب ألا تذهبي.

وردت قائلة:

– لا يا ولدي.. أن بقائي معناه أننا نضع أنفسنا في جهنم بأيدينا. لقد قاسيت العذاب طيلة الشهر الماضي، أن شقيقك تغلب عليك الآن، ولكن.. عندما يتبلد إحساس الشفقة هذا.. عندما تنظر إلي كما ينظر إلى بيير، عندما تتذكر ما قلته لك.. يا للفظاعة يا ولدي.. فكر.. فكر جيداً.. إن امرأة أخطأت. وهذه المرأة هي أمك.

ورد في إصرار قائلاً:

– ليس لي في الدنيا غيرك الآن.. فلا تتركيني.

ولكن تذكر أننا لن يرى أحدنا الآخر دون أن يتألم، سأحس دائماً عندما أراك، أو أرى بيير أني سأموت من الخزي والعار.. وستحس أنت كذلك أنك تحتقرني.

- لن يحدث ذلك يا أماه..

- لسوف يحدث.. نعم.. نعم يا ولدي.. إني أفهم آلام أخيك منذ البداية وقدرتها.. وتعذبت لعذابه.. كنت كلما سمعت وقع أقدامه في المنزل أحس كأن سكيناً غرست في قلبي.. وعندما كنت أسمع صوته كان يداخلني إحساس بالإغماء، وها أنت الآن أيضاً قد عرفت.. أوه يا ولدي العزيز.. هل تظن إني أستطيع أن أحيا بينكما أنتما الاثنان هكذا..

- نعم يا أماه.. نعم. سوف أحبك إلى النهاية، وسوف ينسيك حبي كل ذكرياتك المؤلمة هذه.

ولكن الأم تنهدت في يأس وقالت:

- آه لو كان ذلك ممكناً.

ورد جان قائلا:

- نعم ممكن.. ممكن جداً.

- مستحيل.. لن أستطيع أنا نفسي ألا أفكر في الأمر كلما رأيتك أو رأيت بيير.. وأنت.. ألن تفكر في الموضوع باستمرار!.

إني أعدك أمام الله ألا أفكر فيه بعد الآن.

- لن تستطيع منع نفسك من التفكير..

- أماه.. إني أعدك..

ثم قال لها مستطرداً:

- اسمعي.. إذا ذهبت فسأقتل نفسي.

وهزها هذا التهديد الصبياني، وخافت عليه من تفكيره، واحتضنته، وأخذت تربت على رأسه بيدها، بينما أصابعها تتخلل خصلات شعره.. وهو يقول لها:

– إني أحبك أكثر مما تتصورين.. اسمعي يا أماه.. اعطى لنفسك أسبوعاً كتجربة. أسبوعاً واحداً قبل أن تفكري في الرحيل. هل يصعب عليك هذا، ووضعت كلتا يديها على كتفي جان، ثم نظرت إليه بإمعان وقالت:

– حسناً.. فلنتحادث أولاً في هدوء يا ولدي. لو كنت سمعت منك ما سمعته من أخيك، ولو كنت رأيت في عينيك بريق الاتهام الذي طالما رأيته في عينيه طيلة الشهر المنصرم، لو كانت أي كلمة منك أو أية إشارة جعلتني أحس إنك تحمل لي نفس الإحساس الذي أحسه ببيير ناحيتي منذ شهر، لكنت قد رحلت مهما كان تمسكك بي..

وقاطعها جان قائلاً:

– أمي.. إني أقسم..

ولكنها وضعت إصبعاً على فمه لتسكته واستمرت قائلة:

– دعني أكمل حديثي يا جان. لقد تحملت في الشهر الماضي هذا ما يفوق قدرة البشر، فمنذ اللحظة التي تيقنت فيها من أن أخاك – ابني الأكبر – يشك في، وأنه يصل إلى الحقيقة دقيقة بدقيقة، أصبحت كل لحظة في حياتي هي لحظة استشهاد لا يمكن أن أصف لك آلامها.

وكانت تتكلم في لهجة نفذت إلى قلب جان حتى إنه – وهو الرجل – لم يستطع أن يمنع دموعاً سخينة من أن تملأ مآقي عينيه وأراد أن يقبلها ولكنها منعته قائلة:

قلت لك دعني أكمل حديثي أولاً، فلا زال لدي الكثير الذي يجب أن تفهمه جيداً.. لكن هل ستفهم حقاً هو إني لو بقيت فلابد وترددت.. ثم هزت رأسها قائلة:

–لا لا.. لا أستطيع..

وقال جان في رجاء:

- أخبريني بكل ما عندك يا والدتي.. أرجوك.

وصمتت الأم برهة. ثم قالت:

- حسناً.. ما دمت تريد، على الأقل حتى لا أكون قد خدعتك. أنت تريدني أن أبقى معك، أليس كذلك؟ إذن.. لكي أستطيع أن أحادثك. وانظر إليك وتنظر إلي.. أواجهك وتواجهني، لكي نعيش سوياً.. لا يجب أن تغفر لي.. فالمغفرة تحطيم الإنسان، وتشعره بالمذلة.. ولكن أرجو ألا تشعر بالغضب من جراء فعلتي. يجب أن تحس بالقوة.. حتى تستطيع أن تواجه نفسك، وتقول لها إنك لست ابن رولاند.. دون أن تخجل من نفسك.. أو تشعر بالاحتقار من ناحيتي، لقد قاسيت الكثير.. أكثر مما أستحق وأكثر مما أحتمل.. يجب أن تفهم يا بني إنه إذا كنت ظاهرياً– عشيقة لمسيو مارشال – والدك الحقيقي– فلقد كنت في الواقع زوجته الحقيقية.. وأحب أن

أعترف لك بكل صراحة ومن صميم قلبي إني لست آسفة على تلك العلاقة.. وإنني لا زلت أحبه بالرغم من موته، وإنني سأظل أحبه أكثر مما أحب أي أحد، فقد كان كل حياتي، وكل أملي وكل سلوتي؛ وكل ما لي في الحياة. اسمع يا بني.. إني أتحدث أمام الله الذي يشهد علينا الآن.. لو لم أقابل مارشال "كان لحياتي أي قيمة، إني مدينة له بكل لحظة سعادة اقتنصتها من الحياة، ولولاه لما كان لي حب، أو هناء.. لقد كان لي كل شيء.. ثم أصبحتما – أنت وبيير بديلاً له في حياتي.. بدونكما.. كان العالم سيكون بالنسبة لي خاوياً، في سواد الليل ووحشته، ولولاكما لما أحببت أي شيء ولما استشعرت أية متعة.

عندما رغب رولاند أن ننتقل من باريس إلى لوهافر، بكيت كثيراً.. لأني كنت سأفارق مارشال الذي كنت قد وهبت نفسي له كزوجة حقيقية أمام الله لمدة عشر سنين.. ولكن في النهاية اكتشفت أنك أحببته أكثر مما أحبني، لقد كان رحيماً وشفوقاً دائماً.. ولكنه لم يكن يحبني بالدرجة التي أحببته بها.

وما أكثر ما تخدعنا الحياة! ومنذ أتيت إلى لوهافر لم أره أبداً ولم يحاول هو الحضور إلى هنا بالرغم من أنه ظل يعدني في خطاباته بالحضور.. إلى أن مات.. ولكنه لم يكن قد نسينا، لأنه ترك ثروته لك.. وأنا لا زلت أحبه وسأظل أحبه حتى آخر نفس لي في الحياة، وأنا أحبك لأنك منه.

ثم انتظرت برهة وقالت:

- هل فهمت ما قلت الآن؟ إذا كنت تريدني أن أبقى، فيجب أن تعترف بأنك ابنه وإننا ربما نتكلم عنه أحياناً. فيما بيننا، وإنك يجب

أن تشعر نحوه بالحب، أما إذا لم يكن في استطاعتك قبول هذا الشرط.. فوداعاً إذن يا بني. إذ لن يكون في الإمكان أن نبقى سوياً.. وها أنذا في انتظار رأيك.

وبكل هدوء.. أجاب جان:

– أبقي يا أماه..

ولم تتمالك نفسها من البكاء، واحتضنته، وبللت خده بدموعها قائلة:

– وماذا عن بيير؟

وغمغم جان قائلاً:

– سنفكر فيما يجب أن نفعله معه.. فلن تستطيعي أن تعيشي في نفس المنزل الذي يعيش فيه.

واعترتها رعشة خوف عند ذكر اسم بيير، وقالت:

– لا لا.. لا يمكن أن أحتمل نظراته ولا تقريعه المستمر.. لم أعد أحتمل يا جان.

وألقت برأسها على صدره تحتمي فيه واستطردت قائلة:

– أنقذني منه يا جان. افعل شيئاً.. أي شيء.. لتحميني منه

وأجاب جان مهدئاً:

– اطمئني يا أماه.. سوف أبذل كل جهدي.

حالاً.. الأمر لا يتحمل الإبطاء. لا تتركني فأنا أخاف منه.

– أعدك، أن أفكر في حل سريع.

– بسرعة.. بسرعة يا جان. إنك لا تدرك معني قولي إني أخاف منه.

ثم همست له قائلة في توسل:

–دعني أقيم معك هنا.

وتردد قليلاً.. لأنه أراد أن يفكر جلياً في النتائج التي يمكن أن تتمخض عن إقامتها الدائمة معه، ولحظت تردده واستمرت تقول في إلحاح:

– الليلة فقط.. وتستطيع أن تخبر رولاند في الصباح إني مرضت ولم أستطع الذهاب إلى المنزل.

وقال جان:

- إن هذا مستحيل يا أماه لأن بيير كان هنا وذهب إلى المنزل. يجب أن تواجهي الأمور بشجاعة وسأرتب كل الأمور غداً. هذا وعد منى لك. سأكون المنزل الساعة التاسعة صباحاً. هيا ارتدي قبعتك وسأصطحبك إلى هناك الآن.

واستسلمت لقوله وقالت في لهجة حزينة يائسة:

- سأصنع ما تريد يا جان.

وحاولت أن تمشي ولكن قدماها كانتا ترتعشان كأنها قائمة من مرض طويل، وناولها جان قدحاً من الماء وقطعة من السكر لتعطيها سعراً حرارياً يعينها على السير، وبلل شفتيها بالخل، وأعطاها بعض الماء المعطر لتدلك به وجهها ويديها، وأخيراً سارت.. وقد وضعت ذراعها في ذراعه مستندة عليه،

وكانت دقات الساعة تعان الثالثة صباحاً.

عندما وصلا أمام باب منزل العائلة قبلها قائلاً:

- مع السلامة يا والدتي.. كوني شجاعة. سأكون هنا الساعة التاسعة.

ودخلت المنزل واتجهت إلى حجرتها مباشرة، وغيرت ملابسها بسرعة ثم نامت بجوار رولاند الذي لم يحس بقدومها.

شخص آخر في المنزل لم يكن نائماً.. وأحس بها عند قدومها. هذا الشخص هو بيير الذي لم يذق للنوم طعماً.

الفصل الثامن



عندما عاد جان إلى شقته، ألقى بنفسه على أحد المقاعد، وأحس أن آلاماً هائلة قد تمكنت من ذراعيه وساقيه حتى أنه أصبح غير قادر على السير إلى غرفة النوم والاستلقاء على السرير.

وبعض الناس عندما يقفون على خبر شيء يصدم نفوسهم يصابون بالأرق، والقلق، وعدم الاستقرار، والرغبة الدائمة في الحركة العشوائية التي ينفسون بها عن طاقات الغضب التي تصطدم في نفوسهم.. وهكذا كان بيير أما جان، فقد كان من ذلك النوع الذي أن أصابته هزة نفسية فإنها تترجم نفسها في صورة آلام جسمانية تتملك أي جزء من جسمه، وعندما عاد.. كان الحزن يغمره، وغشاوة كثيفة من القنوط قد سحبت على كيانه كله. لم يكن جان مثل بيير الذي اعتبر اكتشافه لزلة والدته طعنة في شرفه وبقعة سوداء شوهت تمثال النقاوة التي طالما أقامه لأمه في نفسه.. لا.. الأمر كان بعيداً عن هذا التصور بالنسبة لجان. لقد أحس كأن القدر قد صوب إليه ضربة قاضية هددت بالإبادة كل مصالحه التي بناها.

ومضت فترة من الوقت هدأت فيها نفسه، وخمدت الثورة التي كانت تعتمل في تفكيره فصفا مثل بحيرة الماء التي إن ألقيت فيها حجراً عكراً صفو مائها، ثم لا يلبث بعد زوال أثر الحجر أن يستعيد هدوءه مرة أخرى.. وأخذ يفكر في آخر مشهد جرى بينه وبين أمه..

لو كان سر مولده قد وصله بطريقة غير تلك، لكان الغضب قد تملكه بصورة لا يعرف الآن آخر مداها.. أما ثورة أخيه العصبية التي ألقى الله فيها كل شكوكه واتهاماته.. ثم ذلك الاعتراف اليائس المستسلم الذي قدمته له أمه.. كل ذلك لم يترك في نفسه القوة اللازمة للثورة.. وتمكنت عاطفته الطيبة نحو والدته من أن تجرف في تيارها كل رغبة في تجسيد الخطيئة وتهويلها. هذا بالإضافة إلى أن جان لم يكن من ذلك النوع من الرجال الذي يفضل أن يسبح ضد التيار أي أنه لم يكن يحب أبداً أن يقع في صراع بينه وبين أي إنسان آخر.. حتى ولو كان ذلك الإنسان الآخر هو نفسه. وهكذا كانت طبيعته طيلة حياته، يميل دائماً إلى الهدوء ينأى بنفسه عن أي خلاف، مع أي أحد، حتى ولو أدى ذلك إلى تنازله عن بعض حقوقه.. لا عن ضعف، ولكن حباً في السلام.

والآن.. وبعد الاتهام المدوي.. والاعتراف الرهيب.. يجد نفسه في موقف لا يحسد عليه.. إن أمامه مصاعب تهدد مصالحه الشخصية في الصميم.. والتفكير في حل لها يستلزم منه الآن مجهوداً عقلياً جباراً.

كان يؤمن أنه من الضروري جداً أن يجد حلاً عاجلاً لتلك المشكلة.. وفكر في موقف أخيه.

ورأى بعقلية المحامي أنه من العسير الآن أن يعيش مع بيير في هدوء أو أن تعود العلاقة بينهما إلى سابق حالها، وبالنسبة لجان فالأمر قد يكون سهلاً، إذ أنه يستطيع أن يقيم في شقته ويتجنب ملاقاته بقدر الإمكان.. أما بالنسبة لوالدته فلا يمكن أن يكون هنالك أي أمل في أن تعيش في منزل العائلة طالما أن بيير هناك..

وقضى جان وقتاً ليس بالقصير يفكر في الموضوع من جميع نواحيه.. ويفرض الافتراضات ويناقش الاقتراحات، ويمعن التفكير في كل الاحتمالات.. ولكنه لم يصل في النهاية إلى قرار.

وقفزت فجأة فكرة عاجلة إلى تفكيره.. هل يمكن لرجل يحترم نفسه أن يقبل الوصية والثروة بعد ما كان؟

لا.. هكذا قال جان لنفسه، وأخذ يفكر في وسيلة يتنازل بها عن الثروة للفقراء.

ما أصعب قبول هذا القرار.. ولكن هل أمامه حل بديل؟ سوف يبيع هذا الأثاث الفخم الذي أنفق عليه من أموال الوصية. ويبدأ حياته من جديد.. مكتسباً عيشه بعمله كما يفعل كل الناس.. وأحس بالحماس

عندما خطر له هذا الخاطر الرجولي الشجاع، ولذا فقد قام واتجه إلى النافذة وأسند رأسه إلى حافتها وهو يقول لنفسه إنه كان فقيراً من قبل.. ولا ضرر من أن يعود إلى الفقر.. وأحس بدوار.. ونظر إلى مصابيح الشارع المضيئة، وتذكر مدام روزيمللي فجأة واعترته رعشة هزت كيانه.. فإن رجوعه للفقر معناه أن يكف عن التفكير في الزواج منها.. أي أن يوئد في نفسه كل أمل في السعادة.. أي أن يفقد كل شيء!

هل حقاً سيفقد مدام روزيمللي.. هل يمكن أن ترضى هي بفقره؟ لقد قبلته وهي تعلم أنه غني، ولا يمكن أن يفرض عليها أحد أن تقبل التضحية..

حسناً.. هناك حل وسط يا جان، هل يمكن أن تحتفظ بالنقود الآن ولكن على أساس أنها دين عليك.. ثم عندما تتزوج مدام روزيمللي وتطمئن

على أنها أصبحت زوجتك، تعيد النقود بل وفوائدها أيضاً وتوزعها على الفقراء؟

ولكنه أحس أنها فكرة مضحكة، واعتراه القلق، وأخذ يروح ويجيء في الغرفة محاولاً أن يصل إلى حل أكثر جدية، ومنطقية.. حل يريح نفسه، ويحفظ عليه ثروته.

وفجأة قفز إلى تفكيره هذا القرار:

حيث إني لست ابن الرجل الذي ظننت طول عمرى أنه والدي.. فأنا لا أستحق أي فرنك منه سواء في حياته أم بعد مماته، وإلا فإني أكون قائماً بعملية سرقة غير شريفة بالنسبة لأخي بيير.

وكأنما هدأ هذا القرار ضميره بعض الشيء، ولذا فقد استمر يناقش نفسه قائلاً:

– نعم. يجب ألا آخذ أي فرنك من ثروة رولاند.. سوف أتركها بأكملها لبيير لأنه هو الوحيد الذي يستحقها، أنا لست ابن أبيه. هو فقط صاحب الحق في كل ثروته.

ثم وصل إلى التساؤل الذي كان يختفي وراء كل تلك الأفكار.

إذا كان بيير هو المستحق الوحيد لكل ثروة والده. أليس من حقي إذاً أن أتمتع بثروة والدى مارشال طالما ثبت أني ابنه..

واقتنع في الحال بوجاهة هذا المنطق وأحس بأن إحدى المشاكل قد سويت، ولم يبق أمامه إلا مشكلة وجود بيير في الأسرة.. وأخذ جان يفكر

في وسيلة تجعل بيير يعيش في مكان بعيد.. لصالحه هو – أي صالح بيير – ولمصلحة بقية أفراد الأسرة جميعاً.

وانطلقت في سكون الليل صفارة سفينة تطلب دخول الميناء.. وحمل صوت الصفارة الحل المنشود إلى جان.

وفي صباح اليوم التالي، وعندما بلغت الساعة التاسعة، خرج جان لينفذ الخطة التي رسمها، وبعد أن قام بعدة زيارات.. وقابل بعض الأشخاص، توجه مباشرة إلى منزل العائلة، وكانت أمه لا زالت في غرفتها في انتظار حضوره حسب وعده لها، وعندما دخل إليها أحس من نظراتها أهمية حضوره بالنسبة لها وقالت له:

لو لم تأت يا جان لما جرؤت على مغادرة هذه الحجرة أبداً..

وسمعوا في تلك اللحظة صوت مسيو رولاند في الصالة وهو يقول في غضب:

– يا للشيطان! ألن نتناول الغداء اليوم؟

ولما لم يسمع جواباً، انطلق صوته ينادي جوزفين:

– جوزفين.. ماذا تفعلين أيتها الملعونة الآن ؟

وأثاره صوت الخادمة وهي تسأل:

– أنا هنا يا سيدي.. ماذا هناك؟

ورد في زمجرة غاضبة:

– ماذا هناك.. ألا تعرفين ماذا هناك حتى الآن؟ أين سيدتك؟

وردت جوزفين قائلة:

– إنها في غرفتها مع مسيو جان.

عندئذ رفع رولاند صوته منادياً:

– لويز!

وقامت مدام رولاند وفتحت باب الغرفة وقالت:

– نعم يا عزيزي وماذا هناك؟

وقال الرجل وزمامه يكاد يفلت منه من شدة الغضب:

– أنت أيضاً تقولين ماذا هناك؟ ألن نأكل شيئاً اليوم؟

وأجابت مدام رولاند مهدئة سورة غضب زوجها:

– لحظة واحدة يا عزيزي.. سآتي حالاً. وخرجت، يتبعها جان.

وعندما قابل جان مسيو رولاند حياه ثم سأله رولاند:

- هل أوحشتك أمك إلى هذه الدرجة؟

ورد جان في هدوء:

– كنت أتناقش معها في أمر هام يا والدي..

وتساءلت مدام رولاند:

– ألم ينزل بيير بعد لتناول الغداء؟

وهز مسيو رولاند كتفيه وقال:

– لا.. ولكننا لن ننتظره.. لقد أكثر من التأخير عن مواعيد الطعام في هذه الأيام.

ونظرت مدام رولاند إلى جان قائلة:

- يجب أن تصعد إليه يا جان.. فهو يتضايق دائماً لو بدئ الطعام بدونه.

وأجاب جان دون تردد:

- حسناً يا أماه.. سوف أصعد إليه لاستدعائه.

وصعد الدرج بسرعة، وبه إحساس المقبل على عراك، ولكنه عندما قرع الباب أتاه صوت بيير من الداخل قائلاً:

– ادخل.

ودخل.. وكان بيير جالساً يكتب على ورقة أمامه.

وقال جان:

– صباح الخير يا بيير.

ونهض بيير من جلسته ورد قائلاً:

- صباح الخير.

ومد كلاهما يده للآخر كما لو لم يحدث بينهما أي شيء.

وسأله جان:

– ألن تأتي لنتناول الغداء؟

واهتز صوت بيير وهو يقول:

– في الواقع.. عندي بعض الأشياء التي أود أن أكتبها.

وعاد جان يقول في صوت هادئ:

– إن الجميع في انتظارك.

وازدادت رعشة صوت بيير وهو يسأل في تردد:

– هل.. هل الوالدة في غرفة الطعام؟

وأجاب جان:

– نعم.. وهي التي أرسلتني لاستدعائك.

– حسناً.. سوف آتي حالاً.

وعندما اقترب من غرفة الطعام، تردد بيير في الدخول أولاً، ولكنه لم يجد فرصة للتراجع فدخل، وكان والده ووالدته جالسين على مقعديهما صامتين.. وتوجه إلى والدته مباشرة، دون أن ينطق بكلمة، ودون أن يحاول أن يركز نظره عليها حتى لا تلتقي عيناه بعينيها، وأحنى رأسه أمامها مقدماً جبهته حتى تقبلها كما تعود أن يفعل في الأيام الأخيرة، بدلاً من أن يقبلها هو نفس كما كان معتاداً أن يفعل من قبل.. وأحس بلمس شفتيها على جبينه كجمر النار.. وما إن انتهى هذا الواجب حتى توجه إلى مقعده ولسان حاله يتساءل:

– ترى ماذا قالت هي وجان بعد أن غادرت الشقة أمس؟

وخلال الطعام.. حرص جان على أن يناديها كما اعتاد من قبل "بأمي" و "يا أمي العزيزة"، كما حرص على أن يخدمها أثناء الطعام.. يناولها الأصناف البعيدة عن متناول يدها، ويصب لها النبيذ في كأسها.. حدس بيير

أن جان ووالدته قد غسلا أحزانهما أمس بدموع مشتركة، ولكنه أخذ يسأل نفسه: "هل صدق جان ما قلت حقاً.. أم أنه يظن إني كاذب مخادع!".

وهاجمه إحساس بالرغبة في الهرب من هذا المنزل، حيث إنه لم يعد يحس بأية رابطة تربطه به.. كم يود أن يرحل بعيداً.. إلى أي مكان.. حتى ينهى تلك الدراما المقبضة التي استحكمت على مسرح ذلك المنزل! إنه يحس أن وجوده وسطهم يعذبهم.. ويعذبه أيضاً بنفس المقدار..

كان جان مشغولاً بالحديث مع رولاند.. وإن لم يتابع بيير ذلك الحديث وأخيراً ركز اهتمامه إلى ما حوله فسمع جان يقول:

- يبدو أنها أكبر سفنهم على الإطلاق. لقد قالوا لي أن حمولتها تبلغ ستة آلاف وخمسمائة طن.. وستقوم برحلتها الأولى في الشهر القادم.'

وقال رولاند في دهشة:

– هكذا بسرعة؟ لقد ظننت أنها لن تكون مستعدة للإبحار قبل بداية الصيف.

وعقب جان قائلاً:

– معذرة.. ولكنهم ضاعفوا حجم العمل، حتى تتمكن من القيام برحلتها في هذا الوقت المبكر. لقد مررت بمكتب الشركة صباح اليوم وتحادثت مع أحد كبار المسئولين فيها.

ورد رولاند قائلا:

- آه.. حقاً؟ من يا ترى..

- مسيو مارشاند.. وهو صديق حميم لرئيس مجلس الإدارة.

– آها.. هل تعرفه؟

– نعم.. ولقد قصدته في خدمة صغيرة.

وقال رولاند في مرح:

– أظنك طلبت منه أن يحجز لي مكاناً على ظهر "لورين" لمصاحبتها في رحلتها الأولى.

أليس كذلك؟

وابتسم جان وهو يجيب:

- طبعاً.. فالأمر سهل وتكاليف الرحلة ليست باهظة وسأدفعها لك.

ثم صمت جان برهة، وبدا علية التردد وجاهد في أن يختار الكلمات المناسبة التي تؤدي الغرض الذي رمى من الزيارة.. وأخيراً قال:

– إن الرحلة سوف توفر لك متعة فائقة.. وتستطيع أن تقيم صداقات مع الركاب ومع طاقم السفينة نفسه، هل تدري إنهم يتقاضون مرتبات كبيرة.. هؤلاء العاملون على السفن عابرة المحيطات.. فمثلاً يتقاضى طبيب السفينة خمسة آلاف فرنك شهرياً بالإضافة إلى تكاليف الطعام والملبس والخدمة والتدفئة إلى آخره.. أي ما يوازي عشرة آلاف فرنك لو حسبت ثمن تلك الخدمات.

ورفع بيير رأسه.. وتلاقت نظراته بنظرات أخيه.. وفهم ما يعنيه.وصمت جان.. وبعد لحظة سأله بيير:

– هل من الصعب أن يجد المرء وظيفة طبيب على ظهر إحدى تلك

السفن الكبيرة؟

وأجاب جان:

- نعم.. ولا. فكل شيء يعتمد على الظروف..

وسادت لحظة أطول من الصمت ثم عاد بيير يسأل:

– هل قلت أن "لورين ستبحر في أول الشهر القادم؟

– نعم.. في اليوم السابع على وجه التأكيد.

وصمت.. وفكر بيير في أنه لو تمكن من الالتحاق بوظيفة طبيب على ظهر "اللورين" فسوف يكون هذا حلاً لمشكلة وجوده مع الأسرة الذي أصبح لا يطاق. حسناً.. سوف يفكر في هذا فيما بعد.. أما الآن فعليه أن يعتمد على نفسه وألا يأخذ منهم أي فرنك. منذ يومين فقط اضطر إلى أن يبيع ساعته لأنه لم يرض أن يمد يده إلى والدته طلباً للنقود..

وقال بعد تردد:

– لو استطعت أن أحصل على هذه الوظيفة فسأكون سعيداً جداً.

وتساءل جان في بساطة:

– ولم لا؟

ورد بيير:

– لأني لا أعرف أي أحد في الشركة التي تمتلك السفينة ليساعدني في الحصول على تلك الوظيفة.

وتدل رولاند في الحديث قائلاً:

– وماذا عن خططك الرائعة التي طالما حدثتنا عنها لكي تصبح أشهر طبيب في لوهافر؟

وقال بيير في صوت كسير:

– تمر بالإنسان لحظات يضحي فيها بآماله المضيئة وتطلعاته للمستقبل التي طالما حلم بها. ثم أنها ستكون بداية.. أستطيع أن أدخر بضعة آلاف من الفرنكات تساعدني على شق طريقي.

واقتنع والده بوجهة نظره، وأضاف قائلاً:

– معك حق يا بيير..

ثم التفت إلى زوجته وسألها قائلاً:

- ما رأيك يا لويز؟

وأجابت في صوت خفيض لا يكاد يسمع:

- أظن أن بيير على حق.

وقال رولاند:

- سأحادث مسيو بولين عن الموضوع فأنا أعرفه جيداً، وهو يعمل قاضياً في الدائرة التجارية وله صلات وساعة بالشركات والتجارة. كما إني أعرف مسيو ليفننت وهو صديق لنائب رئيس مجلس الإدارة.

وسأل جان بيير:

- هل تود أن أحادث مسيو مارشاند الليلة؟

ورد بيير بدون تردد:

- نعم

كانت جدران غرفة الاستقبال مغطاة بأوراق ملونة، مزخرفة برسومات وحدات من الزهور في تناسق بديع، وقد علقت على الحائط أربع صور زيتية، كان زوجها السابق قد اشتراها قبل موته. كانت إحدى الصور تمثل زوجة أحد الصيادين وهي تقف على شاطئ البحر تلوح بمنديلها في شوق إلى زوجها العائد بعد رحلة صيد طويلة.. والصورة الثانية تمثل نفس زوجة الصياد وهي راكعة فوق رمال الشاطئ، والدموع في عينيها، والأسى يكاد يقتلها.. والسماء ملبدة بالغيوم، والبحر مكفهر، وقارب الزوج على وشك الغرق. أما الصورة الثالثة، فكانت تمثل امرأة شابة، ترتكز على حافة سور ظهر إحدى السفن.. وهي تنظر إلى الشاطئ ودموع غزيرة تكاد تحجب عنها الرؤية.. ترى، أي عزيز تركته على الشاطئ! أما الصورة الرابعة فتمثل نفس الفتاة وهي جالسة في قمرتها في السفينة.. وقد أغمى عليها بينما سقطت رسالة من يدها فوق أرض القمرة. لقد ماتت.. يا للمصيبة!

وكان زوار مدام روزيمللي دائماً يعجبون من تلك الصور.. ومن موضوعاتها الحزينة القائمة، وكانوا يفهمون معانيها بسهولة.

كانت هذه هي المرة الأولى التي يدخل فيها جان منزل مدام روزيمللي.. وتعلقت أنظاره بالصور منذ الوهلة الأولى، وداخل

جان ووالدته إحساس بالتعاطف مع بطلتي الصور.. ومصيرهما المقبض.. ونهايتهما الباكية الحزينة وجلس جان على أحد المقاعد في مواجهة الصور، وجلست والدته قبالته بجوار مضيفتهما مدام روزيمللي. وبعد تبادل التحيات التقليدية سألت مدام رولاند مدام روزيمللي قائلة:

– ألم تخرجي اليوم؟

وردت مدام روزيمللي قائلة:

– لا.. لقد شعرت ببعض التعب وآثرت البقاء في المنزل التماساً للراحة.

ورد جان قائلاً:

- لأني وعدتها بالزيارة.

- حسناً.. ما دمت وعدت فلابد من وفائك بالوعد.

وتشاغل بإشعال غيلونه، بينما غادر الابن والأم غرفة الطعام استعداداً للخروج وعندما أصبحا في الشارع قال جان لوالدته:

- هل تودين أن تضعي يدك في ذراعي يا أماه؟

وبالرغم من أنها لم تتعود أن تضع ذراعها في ذراع ابنها، إلا أنها قبلت عرضه، وسارا دون أن يتبادلا أية كلمة، وبعد بضعة دقائق قال حان:

- لعلك لاحظت أن بيير مصمم على الرحيل.

وقالت الأم في صوت خفيض:

- يا لولدي المسكين..

وتساءل جان:

- لماذا تقولين "يا ولدي المسكين"؟ إنه لن يشعر بغير السعادة وهو على ظهر "لورين".

وردت الأم قائلة:

- أنا أعرف، ولكنه قلب الأم يا ولدي.

وصمتت قليلاً ثم قالت:

- إن الحياة قاسية.. قاسية جداً.. تعطي الإنسان قدراً من السعادة حتى إذا تخيل أنها دائمة له.. لا تلبث أن تسحب البساط من تحت قدميه!

وقاطعها جان قائلاً:

- أرجو ألا تتحدثي هكذا مرة ثانية يا والدتي.

وردت الأم قائلة:

- لا أستطيع يا بني.. إن أفكاري لا تفارقني أبداً.

- سوف تنسين.

ولكنها هزت رأسها وقالت في شك:

- ليتني.. ليتني أنسى..

ثم صمتت برهة، وأحست بحنق ناحية زوجها رولاند.. وسرحت بخاطرها إلى سنوات زواجها الأولى معه.. وتذكرت كيف أنه كان يهملها، ويغرق في عمله.

كيف كان يعاملها بفظاعة أحياناً، وبعدم اكتراث أحياناً أخرى.. كيف أن شخصيته لم تكن أبداً تتفق مع شخصيتها، هي خيالية، وهو يعيش لغرائزه.. يملأ معدته ويرتفع شخيره إلى عنان السماء، ويتركها تتلظى فوق نيران الشباب المحروم من الكلمة الحلوة، والابتسامة التي تنفد إلى القلب.

تذكرت مداعباته الخشنة التي لا يضحك لها أحد غيره ، وغباوته التي كانت تصيبها أحياناً بالدوار.. وتنهدت.. لقد دفعتها كل هذه الأسباب إلى الخطيئة عندما سنحت لها فرصتها ولكنها لم تكن تعتبرها خطيئة.. لا.. فالحب في نظرها لم يكن خطيئة.. حتى ولو كان لشخص غير زوجها، لأن زوجها لم يكن يعطيها كل ما للزوجة لدى الزوج الفاهم الواعي.

وهاهي نتيجة فعلتها.. ابتدأت بحب وانتهت بخراب.. وهكذا الخطيئة دائماً.. لحظات قصيرة من السعادة ثم ألم ولوعة وعذاب.

وصل جان ووالدته إلى منزل مدام روزيمللي، وكانت تعيش في الطابق الثاني من منزل كبير تملكه في شارع سانت آدرس يطل على البحر من الخلف، ويستطيع المرء أن يرى كل ميناء لوهافر من نوافذه المرتفعة.

وعندما رأت مدام روزيمللي مدام رولاند مقبلة وكانت تسبق ابنها ببضع خطوات لم تمد يدها إليها مسلمة كالعادة، إنما فتحت ذراعيها وألقت بنفسها فوق صدرها محتضنة إياها، إذ أنها على ما يبدو قد خمنت سبب تلك الزيارة، بعد حديث الخطبة الذي دار بينها وبين جان في اليوم السابق.

– نعم ..

ثم أردف بيير قائلاً:

– إن أحسن طريقة هو أن أكتب إلى أساتذتي في كلية الطب ليعطوني شهادات تزكية إلى الشركة.. وأظن أن شهادة تزكية يوقعها أساتذة مثل ماسروسيل وريمو زوت وفلاخ سيكون لها شأن عظيم لدى الشركة.. ويكفي جداً أن يعرض صديقك مسيو مارشاند هذه الشهادة على مجلس الإدارة.

وعقب جان مؤيداً:

– هذه فكرة رائعة.. رائعة يا بيير.

وابتسم، وفرح بينه وبين نفسه، لأنه أحس أن مشاكله التي نشأت بالأمس على وشك الانتهاء.

وسأل جان بيير:

– هل ستكتب إلى أساتذتك اليوم؟

ورد بيير قائلاً:

- نعم.. بمجرد أن أنهي غدائي.

وانتهى الغداء، وكان بيير أول من غادر غرفة المائدة وصعد إلى غرفته ليكتب الخطابات إلى أساتذته. والتفت جان إلى والدته وسألها:

- ماذا أنت فاعلة يا أماه!

وردت قائلة:

- لا أعرف..

وعاد يسألها:

- هل ترغبين في مصاحبتي حتى منزل مدام روزيمللي؟

- ليس لدي مانع.

- أنت تعرفين أنه من الضروري أن أزورها اليوم.

- نعم.. يجب.

وسأل رولاند الذي كان ينصت للحديث:

- لماذا هذا الوجوب.. وما هي الضرورة القصوى التي تدفعك إلى زيارة مدام روزيمللي؟

- لقد كانت رحلة الأمس ممتعة. ما رأيكم لو قمنا برحله مماثلة في الأيام القريبة المقبلة؟

ولكن جان قاطعها قائلاً:

- أليس من المستحسن أن ننهي مشروعاً قبل التفكير في مشروع آخر؟

ولم تفهم ما يعني وسألته:

- أي مشروع تعني؟

وأجاب:

- ألا تذكرين.. عند صخور سانت جوان والصيد الذي دخل شبكتي..

وعادت تسأل كمن لا تفهم:

– وماذا اصطدت؟

وأجاب بسرعة:

– زوجة. ولقد أثبت أنا ووالدتي لنسألها عما إذا كانت قد غيرت رأيها.

وابتسمت وأجابت:

- لا يا مسيو جان.. لم أتعود أن أغير رأيي ابداً.

ومد يده، ومدت يدها.. وتلاقت اليدان.. وتصافحا في تأكيد للوعد الذي ربط بين قلبيهما..

وعاد يسألها:

- وهل توافقين على أن يتم الزواج بأسرع ما يمكن؟

وأجابت:

– في أي وقت تشاء.

– بعد ست أسابيع مثلاً؟

ولم تجب.. بل نظرت إلى مدام رولاند وابتسمت وسألتها:

– ما هو رأي حماتي المقبلة؟

وارتسمت على وجه مدام رولاند ابتسامة حزينة وأجابت:

- لا رأي لي في هذا الموضوع.. يخصكما وحدكما.. كل ما أريد أن أقوله لك هو أن أشكرك على قبولك الزواج من جان.. سوف تسعدينه

كثيراً.. يا مدام روزيمللي.

وعقبت مدام روزيمللي قائلة:

– سوف أبذل كل جهدي يا والدتي.

وكانت المرة الأولى التي تنادي بها مدام روزيمللي مدام رولاند بكلمة "والدتي" وقامت كالطفلة وطوقتها بذراعيها وقبلتها قبلة طويلة.. اندمل منها الجرح العميق الذي كان يدمي قلبها. وغمرها إحساس لم تستطع وصفه، إحساس هو مزيج من السعادة والحزن معاً.. ولقد فقدت أحد أبنائها حيث قرر باختياره أن يهجرها، وها هي مدام روزيمللي تناديها "يا والدتي" لتكون بنتاً لها.

جرى بين الثلاثة حديث طويل حول اليوم المرتقب والاستعداد له.. ثم تساءلت مدام روزيمللى فجأة.

– هل ناقشتم الأمر مع مسيو رولاند؟

وتبادل جان مع والدته نظرة سريعة، أجابت الأم بعدها بسرعة:

لا.. ليس بعد.

وكأنما أحسست مدام رولاند بغرابة الموقف.. أن يخطب الابن دون أن يخسر أباه.. فقالت مستطردة موضحة:

– لقد قررنا كل شيء دون أن نخبره.. ويكفي جداً أن يعلم في النهاية ما قررناه.

ودهشت مدام روزيمللي ولكنها لعلمها بأن رأي رولاند العجوز لا يهم كثيراً في هذا الموضوع ابتسمت وقالت:

-لا بأس.. ولو إني كنت أفضل لو كان قد أتى معكم..

وانتهت الزيارة وخرج جان مع والدته وقلبه يرقص من الفرح، وخيالات السعادة تراود تفكيره، وتبني له قصوراً خضراء في السماء.

الفصل التاسع



وصلت شهادات التزكية التي طلبها بيير من أساتذته في باريس، وكانت كلها تشيد بنبوغ بيير، وقدمت في الحال إلى مجلس ادارة الشركة التي تملك السفن عابرات المحيطات، وزكاها في نفس الوقت مسيو مارشاند نائب رئيس مجلس الإدارة، ومسيو يولين القاضي، ومسيو لينينت وهو من كبار تجار المدينة ومسيو مارينال نائب العمدة وهو صديق حميم لكابتن بواسير.

ولم تكن الشركة قد اختارت بعد طبيباً مقيماً لسفينتها الجديدة "لورين" ولذا فقد كانت فرصة بيير في الحصول على وظيفة كبيرة ومؤملة.

وذات صباح طرقت جوزفين باب حجرة بيير بينما كان يحلق ذقنه، وناولته خطاباً أتى باسمه وفضه، ووجده من الشركة تعلنه بنبأ اختياره لملء الوظيفة الشاغرة.

وكان إحساسه الأول وهو يقرأ الرسالة، هو كإحساس المحكوم عليه بالإعدام الذي يبلغه نبأ العفو عنه، وراوده الأمل في أن آلامه وطول معاناته سوف يجدان أخيراً نهاية عندما يرحل، وأن حياة آمنة تنتظره على ظهر السفينة.

ذلك أنه كان يعيش في منزل والده كزائر غريب، ومنذ الليلة التي باح فيها بالسر المكنون، أحس أنه قد قطع آخر حبل يربطه بالأسرة، وزاد

عذابه لأنه وهو في ثورة عصبية أفرز سره أمام أخيه، وداخله شعور بالذنب، وبأنه إنسان شرير، وغد، غير نظيف.

ولم يكن يجرؤ بعد ذلك على أن تتلاقى نظراته مع نظرات أخيه أو والدته، وكان يسأل نفسه دائماً "ترى ماذا أخبرت جان؟ هل اعترفت له أم أنكرت كل ما قلته؟ وما هو رأي جان في الآن".

أخبر بيير الأسرة بموضوع الرسالة وبنبأ تعيينه، وقد سر مسيو رولاند سروراً شديداً بلغ به حد التصفيق بكلتا يديه تعبيراً عن سروره، بينما علق جان بكل تحفظ:

أهنئك يا بيير من كل قلبي.. ولقد علمت أن هذه الوظيفة كان قد تقدم لها عدد كبير.. ولكن تزكية أساتذتك رجحت كفتك في النهاية.

ولم تستطع مدام رولاند إلا أن تقبل جبينه قائلة:

– أنا سعيدة لنجاحك يا ولدي.

وبعد الغداء وتوجه بيير مباشرة إلى مكتب الشركة للحصول على مزيد من المعلومات والتفصيلات اللازمة، وسأل عن اسم طبيب السفينة "بيكاردي" التي كانت ستبحر في اليوم التالي، ليزوره وليستقي منه بعض المعلومات عن الحياة الجديدة التي تنتظره.

وعلى ظهر السفينة "بيكاردي"، قادوه إلى غرفة صغيرة حيث استقبله دكتور بيريت، وهو شاب له لحية شقراء ذكرته على الفور بلحية أخيه جان، ودار بينهما حديث طويل.

وعندما غادر بيير السفينة ولمست قدمه أرض رصيف الميناء داهمه إحساس بالحزن والكآبة.. لأنه شعر أن أيامه التي تربطه بالأرض قليلة.. وأن حياته قد اصبحت ترتبط بالماء أكثر منها باليابسة.. وشعر بتعاسة.. ليس لها باعث أخلاقي الآن، ولكن مبعثها كان شعوراً كشعور الحيوان الضال.. الذي ليس له مأوى.

لن تطأ أقدامه أرضاً صلبة بعد الآن.. بل ماء وموجاً ومحيطاً غاضباً. لا شوارع تتمشى فيها ولا منازل تعتليها.. بل حجرة كزنزانة السجن فوق سفينة تسلم أمرها لموج البحر ورحمة الطبيعة.. لا أشجار، لا حدائق، لا شيء سوى السحب والأمواج.. والسبب هو خطيئة أمه.

لقد أخطأت هي.. وحكم عليه هو بالعذاب كالمسيح يحمل خطايا الآخرين..

فكر بيير في زيارة ماروفسكو.. لعلمه أنه الشخص الوحيد الذي يحبه من كل قلبه، وعندما رآه العجوز تهللت أسارير وجهه من الفرح وقال له مرحباً.

– لم أعد أراك كثيراً هذه الأيام يا دكتور بيير.

وتذرع بيير بكثرة مشاغله وجلس وقال لماروفسكو:

– هيه.. كيف تسير الدنيا معك؟

ولم تكن الدنيا تسير وفق هوى ماروفسكو العجوز، فالفقراء الذين يسكنون هذا الحي كثيرو المرض، قليلو الذهاب إلى الطبيب والأدوية التي يقبلون عليها من النوع الرخيص وأطباؤهم – رأفة بهم لا بماروفسكو – لا

يصفون لهم الأدوية التي تحتاج تركيباً خاصاً والتي يستطيع ماروفسكو أن يربح منها الكثير.

قال ماروفسكو لبيير:

- لو سارت الأمور على هذا المنوال ثلاثة أشهر أخرى، فلا أخالني إلا مضطراً لغلق المحل.. ولولا إني أتذرع بالأمل في أن تفتح أنت عيادة ويصبح مرضاك عملاء عندي.. لأغلقت المحل منذ مدة.

وتأثر بيير بحال العجوز المسكين.. ولكنه في الوقت نفسه لم يجد مناصاً من مصارحته بمشروعه الجديد بالرغم من علمه بأن على صخرته ستتحطم البقية الباقية من آمال العجوز فقال:

- سوف أرحل عن لوهافر في بداية الشهر القادم.

وهز الخبر ماروفسكو وبدا عليه الاضطراب وقال:

- أنت.. سترحل.. ماذا قلت؟

وأجاب بيير والأسى يعتصر قلبه:

- قلت إني سأرحل يا صديقي المسكين.

وفغر الرجل فاه من شدة الذهول، كمن يستمع إلى خبر موت شخص عزيز.. ولبث هكذا برهة، وأخيراً قال في يأس:

– ترحل.. ولكن، هل تتركني هنا هكذا؟

وتأثر بيير وود لو يحتضن ماروفسكو ليخفف من الصدمة التي أصيبت بها آماله وقال له:

- أنت تعرف إني لم أستطع أن أشق طريقي هنا. ولقد قبلت وظيفة طبيب على أحد السفن من عابرات المحيطات.

ولكن الرجل العجوز رد في صوت متحشرج:

- ولكنك وعدتني، وعدت أن تساعدني على الحياة هنا في لوهافر.. فكيف تتركني وترحل أنت؟

- ليس أمامي فرصة الاختيار.. ويتعين علي أن أبحث عن عمل لأعيش.

ولكن ماروفسكو استمر يقول:

- إنك لم تتصرف تصرفاً سليماً معي.. وليس أمامي الآن إلا الموت جوعاً.. أنا رجل عجوز، ولقد اعتمدت عليك، وها أنت تتخلى عني.

وأراد بيير أن يوضح له الأمر.. أن يشرح له الظروف التي دفعته إلى هذه الهجرة المفروضة، ولكن ماروفسكو رفض أن يستمع إلى حديثة، وقال له مقاطعاً:

- إنكم هكذا دائماً معشر الفرنسيين.. لا تحافظون على وعودكم أبداً.

وغضبه بيير ونهض قائلاً:

- لا يا ماروفسكو. إنك مخطئ فيما تقول، فعندي الأسباب القهرية التي تدعوني للرحيل.. وداعاً، وأتمنى أن أراك في حالة أحسن في المرة القادمة.

وغادر محل ماروفسكو وهو يقول لنفسه.. لن يحزن أحد على رحيلي بعد الآن. وأخذ يستعرض في ذاكرته كل الوجوه التي يعرفها، ليرى هل ستتأثر لرحيله أم لا. وإلى دور فتاة المقهى التي كانت أول من أثار الشكوك في نفسه تجاه والدته وراودته الرغبة في رؤيتها.

توجه بيير إلى المقهى ووجده غاصاً بالرواد ومعظمهم من الطبقة المتوسطة والعاملة – وكان اليوم عطلة.. ولذا فقد تجمعوا في المقهى يتحدثون ويضحكون في صخب، وكان صاحب المقهى، يروح ويجيء بين زبائنه، ويعمل على راحتهم ويلبي طلباتهم، ويساعد العاملات في حمل الأقداح الفارغة، أو الممتلئة بالمشروبات المختلفة.

نجح بيير في العثور على مقعد الخال بجوار البار، وكان يظن أن فتاته سوف تحادثه في اللحظة التي تراه فيها ولكنها مرت عليه أكثر من مرة وهو جالس دون أن تلتفت اليه. ولم يجد بداً من أن يناديها، فأتت وخاطبته قائلة:

- أي خدمة يا سيدي؟

ولم تنظر إليه.. فقد كان رأسها مشغولاً بحسابات الطلبات التي وزعتها وما جمعته من ثمنها.

ورد بيير قائلاً في عتاب:

- أهكذا تقابلين أصدقاءك القدامى؟

ونظرت إلى وجهه بسرعة، وتعرفت عليه وقالت:

– آه.. أهو أنت؟ أرجو أن تكون على ما يرام. لكنني اليوم مشغولة كما ترى وليس لدي وقت. وهل أحضر لك قدحاً من البيرة؟

وأجاب بيير:

– نعم ..

وعندما أحضرت له طلبه قال لها:

- لقد أتيت اليوم لأقول لك وداعاً إذ إني سأرحل عن لوهافر.

ولم يبد على وجهها أي رد فعل للخبر بل سألت بدون اكتراث:

–إلى أين؟

–إلى أمريكا.

– أظن أنها بلد جميل.

وانتهى ما بينهما من حديث، إذ أن بيير قد أخطأ في اختيار الوقت الذي يجب أن يحادثها فيه. وعندما يكثر عملاء المقهى لا يكون لقلبها أي نصيب من وقتها الثمين. وغادر بيير المقهى واتجه ناحية الميناء، ولمح بالصدفة والده ومعه كابتن بواسير على ظهر القارب "اللؤلؤة"، وقد جلسا في استرخاء يدخنان بينما كان "بابا جريس" يجدف في تكاسل ولكن بحذق ومهارة.. وهز بيير كتفه وقال لنفسه:

– ما أسعد الناس الذين لا يتعبون أنفسهم بالتفكير!

وجلس قليلاً على حافة سور الميناء حتى حل الليل فآثر العودة إلى المنزل، وعندما دخل المنزل، قالت له والدته وقد حرصت على ألا تلتقي عينيها بعينيه.

– إنك سوف تحتاج إلى أشياء كثيرة، قبل رحيلك، وهذا هو ما يقلقني يا بيير.

– لقد اشتريت بعض الأقمشة وطلبت من الترزي أن يحيكها لك.

– هل تحتاج إلى أي شيء آخر؟

وأجاب في تلعثم قائلاً:

– لا.. أشكرك.

ولكنه تذكر أنه لابد وأن يجهز لنفسه بعض الملابس حتى تبدو في صورة محترمة، ولذا فقد استطرد قائلاً في هدوء:

– في الحقيقة إني لا أعلم ما أحتاجه.. ولسوف أمر على الشركة غداً للاستعلام.

وتوجه بالفعل في الصباح إلى مقر الشركة، واعطوه قائمة طويلة بما يجب عليه تجهيزه وناول القائمة إلى والدته فأخذتها منه بيد اعترتها رعشة خفيفة.

ونظرت إليه.. لأول مرة منذ أسابيع خلت.. والتقت عيناها بعينيه، ولاح منهما شعاع غريب.. شعاع حيوان مسكين.. عذب وضرب، وها هو ذا يطلب الرحمة والمغفرة.

وفي أول أكتوبر أبحرت "لورين" من سانت نازاري إلى لوهافر.. وكان من المقرر أن تبدأ رحلتها الأولى في السابع من أكتوبر متجهة إلى نيويورك.. وكان من المقرر أيضاً أن يبدأ في ذلك اليوم حياته في غرفته الصغيرة.. على ظهرها.

وفي اليوم التالي وبينما هو يخترق صالة المنزل، كانت والدته هابطة من الطابق العلوي للمنزل، ولما رأته سألته في صوت لا يكاد يسمع قائلة:

– هل تود أن أساعدك في ترتيب غرفتك على ظهر السفينة؟

وأجاب بسرعة:

- لا.. لقد تم عمل كل ما يلزم.

وهمست قائلة:

– بودي أن أرى غرفتك على ظهر السفينة.

وأجاب قائلاً:

– أنها لا تستحق الرؤية.. فهي حجرة ضيقة ليست مبهجة.

وخلال العشاء، ولم يكن لرولاند أي حديث سوى "لورين" وفخامتها وضخامتها حيث قام بتفقدها في الصباح ، وانشغل بيير في تجهيز نفسه للرحيل ولم يكن يرى المنزل إلا لماماً وكانت أعصابه دائماً متوترة، وكلما اقترب يوم الرحيل، زاد توتره.. وفي الليلة السابقة للرحيل، كان عليه أن يقضي الليل في قمرته فوق ظهر السفينة وقبل أن يغادر المنزل إلى الميناء في المساء قال لوالدته في رقة:

- ألن تحضروا لوداعي غداً في الميناء قبل إبحار السفينة؟

وقال مسيو رولاند في تأكيد صادق:

– طبعاً طبعاً يا بيير.. سوف نأتي لوداعك..

ثم التفت إلى زوجته متسائلاً:

- أليس كذلك يا لويز؟

وردت الأم في صوت خفيض:

- بكل تأكيد..

وقال بيير:

– سوف تبحر السفينة في الحادية عشرة تماماً. ويجب أن تكونوا هناك في التاسعة والنصف على الأقل.

وعقب مسيو رولاند قائلاً:

- لقد خطرت لي الآن فكرة.. عندما نودعك على ظهر السفينة سوف نركب قاربنا ونسير به بأقصى سرعة ممكنة وننتظر سفينتك في عرض البحر عند مدخل البوغاز حتى نراك مرة ثانية. ما رأيك يا لويز في هذه الفكرة؟

وأجابت مدام رولاند بنفس الصوت المنخفض:

– فكرة جميلة..

واستطرد مسيو رولاند يقول متحمساً لفكرته :

– وبهذه الطريقة لن نقف مع جمهور المودعين على رصيف الميناء.. ولن نجد مشقة في رؤيتنا ونحن في القارب.

– هيه.. ما رأيك؟

وأجاب بيير قائلاً:

– سيكون ذلك مبعث سعادة لي.

وقبل والدته على جبينها وسلم على والده وانصرف. وبعد ساعة تقريباً.. كان مستلقياً على فراشه في قمرته الضيقة فوق ظهر السفينة.

وكان الفراش ضيقاً يكاد يسع جسمه بصعوبة، وأحس بيير أنه مثل تابوت الموتى، ومر عليه وقت طويل وهو مستلق هكذا، يفكر فيما مر عليه من أحداث خلال الشهرين الأخيرين والتي انتهت به إلى هذا المكان، ولقد قاسى الكثير، وتسبب في إيذاء الآخرين.. ولذا فقد أحس الآن وهو على أعقاب حياة غامضة برغبة دافعة للتخلص من دوافع العدوان التي كانت تعتمل في نفسه حتى إحساس الغضب الذي كان كثيراً ما ينتابه.. شعر أنه قد تبلد الآن.. ولم تعد لديه الرغبة في أن يغضب من أي أحد أو لأي سبب.. كم ضجر من التنافس والصراع والكراهية، وكم رغب في أن يغسل قلبه من كل تلك الأحاسيس ليبدأ حياة جديدة.

استيقظ بيير في الصباح على صوت البحارة وهم يتصايحون وركاب السفينة القادمين من باريس وهم يصعدون إلى ظهرها. فقام واغتسل وارتدى ملابسه وخرج يتمشى على ظهر السفينة وسط الركاب الوافدين ثم توجه إلى غرفة القبطان وأقرأه تحية الصباح وقابل زملاءه الضباط والفنيين فصافحهم، وبعد ذلك توجه إلى القاعة الرئيسية في السفينة حيث جلس بعض الركاب الإنجليز يتسامرون.

وأخذته روعة الأثاث والمرايا التي تكسو جدران القاعة التي تحيط بها الإطارات المذهبة، فتضفي عليها هالة من العظمة، والفخامة.. ولكنه لم يلبث هناك طويلاً، بل قام ونزل إلى الطابق الأسفل من السفينة حيث عنابر الدرجة الثالثة، ورأى حشداً كبيراً من المسافرين الفقراء المتوجهين إلى البلاد

الجديدة في أمريكا.. وكانوا يجلسون على أرضية العنبر، وقد افترشوا البطاطين وقد توسدوا بعض أمتعتهم، وكان الفقر والبؤس يكسو وجوههم وأحس بيير ناحيتهم بمزيج من العطف، والتقزز.. وأعمل خياله في مقارنة بين هذا العنبر، وبين القاعة ذات المرايا المذهبة.. وأحس بعطف أكثر يجتاحه لهؤلاء الفقراء.

عندما عاد إلى قمرته وجد والده ووالدته وأخاه جان ومدام روزيمللي جالسين هناك في انتظاره.. وما أن رآهم حتى أحس كأن ينبوعاً من الحب لهم قد تفجر في قلبه فسرى في كيانه.. وابتسم لهم قائلاً :

– لقد أتيتم في الموعد المناسب.

وكانت مدام رولاند أول المتكلمين فقالت في صوت شابته رعشة خفيفة:

- نعم يا ولدي.. لقد أردنا أن نمكث معك أطول مدة ممكنة..

ونظر إليها.. وكانت تلبس رداء أسود كما لو كانت في حداد على فقد عزيز، وتسللت نظراته إلى شعرها، وهاله أن رأى ذلك الشعر الذي لم تكن به منذ شهرين شعرة واحدة بيضاء.. قد استحال كله الآن إلى كتلة من البياض.

وامتلأت القمرة لصفرها بزوارها الأربعة.. ولم يجد بيير غير السرير ليجلس عليه بعد أن احتلت الأسرة كل المقاعد الموجودة هناك.. وتطلعت مدام روزيمللي إلى النافذة المستديرة المحكمة وقالت:

– أظن أن هذه النافذة لا تسمح بدخول الهواء.

وشرح لها بيير طريقة فتحها وغلقها، وأبان لها متانة الزجاج وسمكه الكبير حتى يستطيع أن يقاوم الأمواج العابسة إذا ما غضبت الطبيعة واكفهر الجو. وسأله رولاند.

– هل الأدوية، ومستلزماتك الطبية موضوعة هنا في تلك الغرفة الصغيرة؟

وفتح بيير أحد الدواليب وظهرت مجموعة كبيرة من الزجاجات والمراهم، وعلب الأقراص، وأخذ يشرح فائدتها لهم ويذكر لهم الأمراض التقليدية الشائعة بين ركاب البواخر وكان الكل ينصت له باهتمام.

وقطع الحديث صوت طرقات على الباب، فصاح بيير قائلاً:

– ادخل.

وفتح الباب.. وكان القادم هو كابتن بواسير الذي مد يده مصافحاً بيير قائلاً:

– لقد تعمدت أن آتي متأخراً، حتى ترك لكم فرصة الوداع العائلي.

وما هي إلا دقائق، حتى ترددت الأوامر في أرجاء السفينة طالبة من المودعين مغادرة السفينة حيث قد حل موعد الإبحار.. وقال كابتن بواسير:

– هيا بنا.. سوف نخرج إلى عرض البحر بالقارب لرؤيتك مرة ثانية.

وقام مسيو رولاند.. وشد على يد ابنه مصافحاً.. وغلبته عاطفته فلم يكتف بالسلام، بل احتضن ابنه في قوة وانهال على وجهه تقبيلاً، ثم فتح باب القمرة ولم تتحرك مدام رولاند من مكانها بل ظلت جالسة مطرقة

شاردة الفكر، وربت مسيو رولاند على كتفها برفق قائلاً:

- هيا بنا يا لويز، يجب أن نسرع.

وقامت من مكانها، واقتربت من ابنها خطوة، ثم مدت له وجنتيها الباردتين كقطعة من الشمع، حيث قبلهما دون أن ينطق بكلمة.. ثم صافح جان ومدام روزيمللي وسألهما:

- متى سيتم الزفاف؟

وأجاب جان قائلاً:

- لا أدري تماماً.. وإن كنا سنحاول أن نجعله يتفق مع إحدى إجازاتك حتى تكون موجوداً معنا.

وخرجوا من القمرة متجهين إلى سطح الباخرة ثم إلى السلم المؤدي إلى رصيف الميناء.. هو الذي كان يعج بجمهور المودعين. وقبل أن تطأ رجل مسيو رولاند السلم التفت إلى بيير وقال له:

- وداعاً يا بني..

ورد بيير وقلبه يرتعش من التأثر.

– وداعاً يا أبي.. وداعاً لكم جميعاً.

وصافحهم جميعاً مرة ثانية ، ونزلوا إلى رصيف الميناء ثم استقلوا إحدى العربات التي أسرعت بهم إلى مرسى "اللؤلؤة" حيث كان "بابا جريس" قد أعده للإبحار.. ولم تكن لديهم أية دقيقة ليضيعوها، ولذا فقد قفزوا إلى القارب ثم أمسك جان بمجداف وبابا جريس بالمجداف الآخر بينما جلس

كابتن بواسير بجوار الدفة وانطلقت "اللؤلؤة" متوغلة في البحر.

وكانت السفينة "لورين" قد غادرت الميناء في تلك اللحظة، مطلقة صفيرها الحاد مودعة به جموع الناس الذين ارتفعت أيديهم ملوحة، وترقرقت الدموع من مآقيهم.. واختلجت عباراتهم التي بثوها أمنيات السلامة للمسافرين.

وصاح مسيو رولاند وهو يقول:

- إني أرى لورين وهي تتحرك من الميناء الآن.. ها هي مداخنها العالية..

وصاح بواسير مشجعاً جان وبابا جريس: هيا يا أولاد.. استمروا في التجديف لنلحق بها.. بينما أخرجت مدام رولاند منديلاً من حقيبتها وقربته من عينيها لتستقبل الدموع الصامتة التي أخذت تسيل من مآقيها.

ووقف رولاند حتى يعطى لنفسه فرصة أكبر للرؤية وأخذ يصيح في حماس:

–ها هي السفينة تتحرك.. إنها تستدير.. إنها تبتعد عن الميناء.. ما هو لنش المرشدين يتقدمها.. ها نحن نقترب منها.

وتوقف جان عن التجديف ليلقي نظرة على السفينة المقتربة والتفتت مدام روزيمللي ناحيتها أيضاً وكذا كابتن بواسير.. أما مدام رولاند.. فقد جلست في مكانها صامتة لا تتحرك.

واستمر صياح رولاند:

– إنها متجهة إلينا.. إنها تقترب منا.

وعقب بواسير في فخر:

– ألم أقل لك.. إني أعرف مسارها تماماً.

وقال جان في صوت خفيض لوالدته:

– انظري يا أماه.. إن سفينة بيير متجهة نحونا.

وأنزلت مدام رولاند المنديل من فوق عينيها والتفتت إلى السفينة القادمة والتي كانت تشق طريقها فوق سطح الماء بقوة وعنف واندفاع، بينما أحالت محركاتها هدوء سطح الماء إلى ثورة عارمة.

وصاح كابتن بواسير قائلاً:

– انظروا.. إني أستطيع أن أرى مسيو بيير واقفاً على ظهر السفينة.. ها هو هناك بجوار سور السطح.

ومرت السفينة الآن بجوار القارب.. ضخمة كالجبل، سريعة كالقطار، والتفتت مدام رولاند ناحيتها ورأت ابنها وهو واقف فوق سطحها، يرسل لهم قبلاته في الهواء، ويلوح لهم بكلتا يديه وأحسست كأن قبلاته موجهة لها وحدها.. وأن يديه تهتز لها وحدها.. ومرت برهة وجيزة خاطفة.. وابتعدت السفينة عن القارب وتعلقت عينا مدام رولاند بابنها الواقف فوق السطح.. ومع ابتعاد السفينة أخذت صورته تصغر شيئاً فشيئاً.. حتى بدت كبقعة صغيرة في مساحة متسعة لا تستطيع العين أن تبلغ مداها..

وأمسك جان بيدها وسألها:

– هل رأيته يا أماه؟

وأجابت وهي لا تزال تتبع السفينة بعينيها: نعم.. رأيته ما أطيبه.. ما أطيبه يا جان. وانهمرت من عينيها الدموع..

وسألها مسيو رولاند:

- لماذا تبكين يا لويز.. سوف يعود حتماً.. سوف يعود.

وأجابت من خلال دموعها:

– ليس لي في دموعي حيلة..

وعادوا بالقارب إلى الشاطئ ثم ودعهم كابتن بواسير وانصرف بينما استأذن جان في مصاحبته مدام روزيملي إلى منزلها.. وسار مسيو رولاند وزوجته متجهين إلى المنزل.

وقال مسيو رولاند لزوجته ليسري عنها:

- لا تحزني يا لويز.. سوف يعود قريباً، وسيقضي معنا كل إجازاته.. وعلى العموم فمعنا هنا جان، ويا له من رجل!

وصمتت برهة، ثم قالت في صوت هادئ.. ولتحمل له النبأ الذي لم يعرفه بعد:

– نعم.. وأنا سعيدة لأنه سيتزوج من مدام روزيمللي. وأدهشت المفاجأة مسيو رولاند.. وقال في تشكك:

– ماذا قلت يا لويز.. جان.. سيتزوج من مدام روزيمللي؟

وأجابت مدام رولاند قائلة:

– نعم.. وقد اعتزمنا أخذ رأيك اليوم.

وسكت لحظة ثم قال:

هل كانت لديه هذه الفكرة منذ زمن طويل؟

– أبداً.. منذ يومين فقط.. ولقد أراد جان أن يطمئن إلى رأيها قبل أن يفاتحك في الموضوع.

وزالت الدهشة عن رولاند، وحل محلها فرح غامر إلى درجة أنه خبط إحدى يديه بالأخرى وقال في سعادة:

– يا له من خبر سعيد.. إني أوافق على هذه الزيجة من قلبي.

وقبل أن يغادرا شارع الميناء.. وقبل أن يدلفا إلى شارع فرانسوا، التفتت مدام رولاند إلى الخلف.. حيث سطح الماء.. وجالت ببصرها في كل أرجاء المحيط الممتد أمامها في لا نهائية خالدة.. ولم تعثر على السفينة التي كانت قد اختفت تماماً خلف خط الأفق البعيد.. وشعرت مدام رولاند بغصة.. وانقبض قلبها.. ودمعت عيناها.. ثم فجأة أيضاً.. شعرت براحة غامرة.. وهي تتذكر بيير.. ابنها البكر.. وهو يسلم عليها في القمرة ويقبلها على وجنتيها، ثم وهو يودعها عند سلم السفينة.. ثم عندما اقتربت السفينة من القارب وهو يرسل لها قبلاته في الهواء ويلوح لها بكلتا يديه..

لقد تذكرت الآن أنها أحست في نظراته إليها بأنه قد نسى.

نسى عذابه من أجلها وتعذيبه لها.. نسى خطيئتها.. ونسى زلتها فلتحاول هي أيضاً أن تنسى.. فلا يجب أن يعيش الإنسان أبداً في ظل خطيئة ارتكبها ليشقى بها ما امتدت به الحياة.. فنحن بشر.. والبشر عرضة للخطأ.. ومن كان منا بلا خطيئة.. فليرم مدام رولاند بحجر.

الفهرس